هذا هو الإسلام
(٥)

• الموقف من الحضارات الأخرى
• أسباب انتشار الإسلام

« شهادة غربية »

د. محمّد عمارة

مكتبة الشروق الدولية

هذا هو الإسلام

(٥)

* الموقف من الحضارات الأخرى

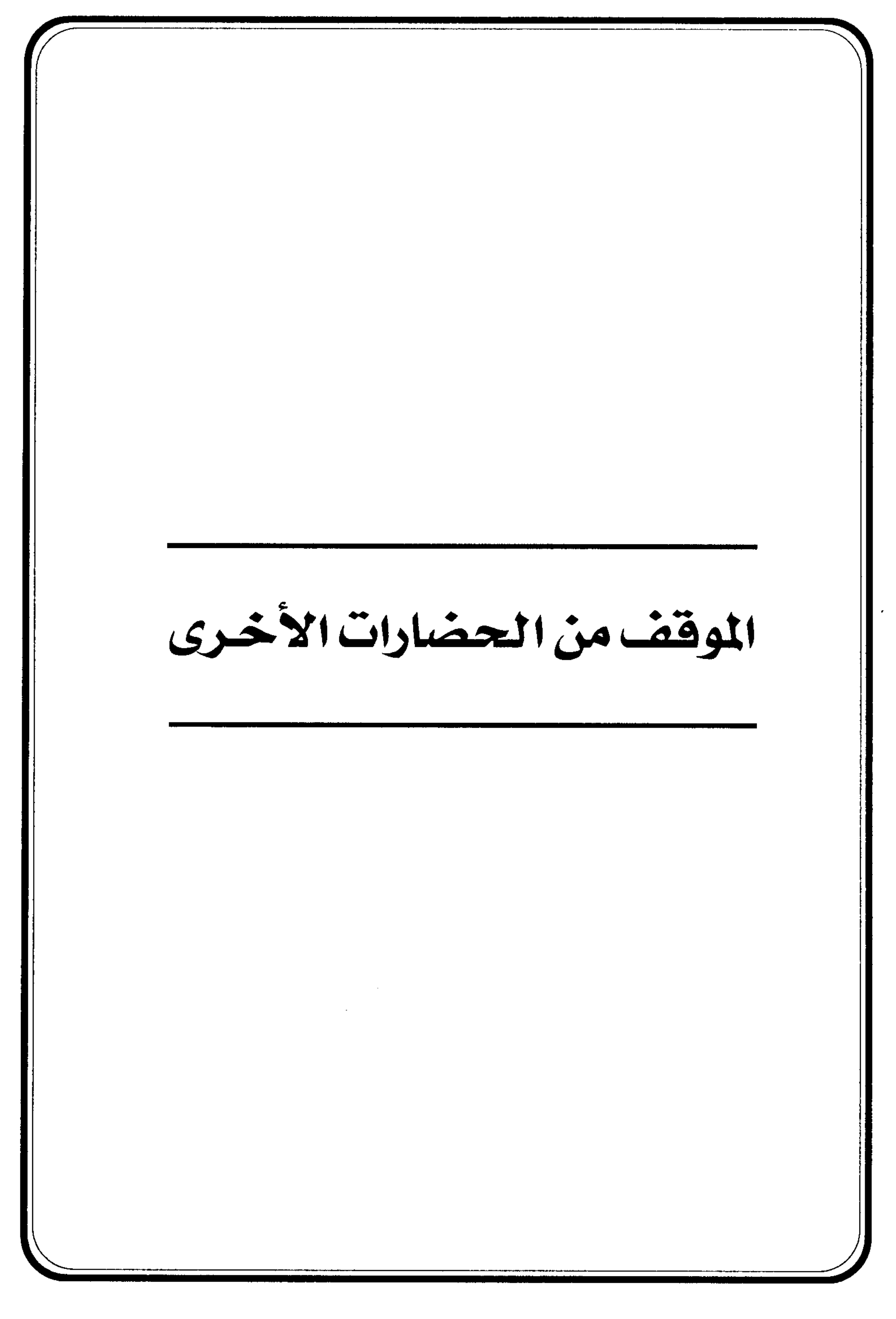
* أسباب انتشار الإسلام
«شهادة غربية»

د. محمد عمارة



الفهرس

الموضـــــــوع الصفحة



الموقف من الحضارات الأخرى

- ١ -

سبع ملاحظات

فى بداية الحديث عن طبيعة العلاقة بين الحضارات . . وهل هى :

- حوار . . وتعارف . . وتفاعل . . وتعايش؟

- أم صراع . . وصدام؟؟

لا بد من التنبيه على عدد من الملاحظات . . ومنها :

١ - أن حديثنا هذا سينصب - أساسًا - على العلاقة بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الإسلامية . . فذلك هو المشكل المُلح والمطروح على دوائر الفكر فى الحضارتين معًا - الآن . . ومنذ قرون - . وهو الذى يدور حوله الجدل . . وتعقد له المؤتمرات . . بل والذى نعانى من تداعياته وآثاره فى الممارسة والتطبيق . .

٢ - أن حديثنا عن الغرب والحضارة الغربية ، لا بد أن يميّز - فى هذا الغرب - بين مكونات أساسية ثلاثة :

(أ) فهناك «الإنسان الغربى» . . ولا مشكلة لحضارتنا الإسلامية مع هذا الإنسان . . ولا مشكلة لهذا الإنسان الغربى مع حضارتنا الإسلامية . . بل إن هذا الإنسان الغربى عندما تعرض عليه قضايانا العادلة ، بل ودينا الإسلامى ، عرضًا موضوعيًا ومنطقيًا ، كثيرًا ما يتفهمها . . بل ويفتح لها عقله وقلبه . . وما تزايد انتشار الإسلام فى الغرب - رغم العقبات المتزايدة - إلا دليلاً على ذلك .

(ب) وهناك «العِلْم الغربى» . . وخاصة فى جوانبه الطبيعية والدقيقة والمحايدة - وتطبيقات هذه العلوم وتقنياتها - . . وحضارتنا الإسلامية - ككل الحضارات - تسعى للتتلمذ على هذا العِلم الغربى ، كما حدث ذلك فى طور نهضتنا الإسلامية

الأولى. . وكما حدث للغرب عندما تتلمذ على حضارتنا الإسلامية ـ فى هذه العلوم ـ إبان النهضة الأوروبية الحديثة ـ فالحكمة ضالة المؤمن، أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها. . ومن العلوم والمعارف ما هو «مشترك إنسانى عام» كالماء والهواء، ليس له وطن، ولا تحده حدود.

(ج) أما المكوّن الثالث من المكونات المتمايزة فى الحضارة الغربية. والذى يثير الإشكالات ويمثل التحديات فى هذا الموضوع ـ موضوع طبيعة العلاقة بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ـ فهو «مشروع الهيمنة الغربية» الساعى ـ تاريخيّا ـ إلى استعمار العالم الإسلامى. . ضمن سعيه للسيطرة على كل العالم ـ . . فمؤسسات هذه الهيمنة الغربية ـ الاقتصادية. . والسياسية. . والدينية. . والفكرية. . والثقافية. . والإعلامية ـ هى التى تمارس ـ تاريخيّا ـ نهج الصراع والصدام مع كل الحضارات غير الغربية. . وهى قد مارست وتمارس هذا النهج الصراعى مع حضارتنا الإسلامية منذ ظهور الإسلام. . حتى ليقول القائد الإنجليزى ـ والكاتب ـ الجنرال «چون باجوت» (جلوب باشا) [١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م]: «**إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**»!! . . أى أن مشكلة الهيمنة الغربية مع الشرق الإسلامى قد بدأت بظهور الإسلام.

٣ـ أن مشروع الهيمنة الغربى هذا. إنما يبتغى من وراء هيمنته ـ أولاً وقبل كل شىء ـ الاستيلاء على الأرض لينهب الثروات. . ثم هو يتوسل بالأفكار والعقائد والفلسفات و«الأيديولوچيات»، وبالدين لتغليف مقاصده «الإمپريالية»، ولإقناع شعوبه كى تضحى فى صراعاته الاستعمارية لتحقيق هذه الأهداف. . كما يتوسل بالفلسفات و«الأيديولوچيات» لتغريب عقولنا. . وأحيانًا بالدين لتنصير شعوبنا. . ليس فقط لكراهيته لديننا وعقائدنا وفلسفاتنا، وإنما لأن إسلامنا ومنظومة القيم والمبادئ والأفكار التى أفرزها الإسلام هى الرابط الذى يوحد أمتنا والباعث المحرض على مقاومة المسلمين لمشروع الهيمنة هذا، بقيم الحرية، والعزة، والجهاد، والتميز الحضارى، والاستقلال الوطنى. .

٤ـ أن الجهد الفكرى الذى يبذله العقل المسلم فى هذا الميدان ـ ميدان العلاقات الصحية بين الحضارات ـ يجب أن يتوجه أساسًا إلى الإنسان الغربى ـ الذى هو ضحية

للنزعات «الأيديولوچية» التى تفرزها المؤسسات الفكرية والدينية لمشروع الهيمنة الغربى - تلك «الأيديولوچيات» التى كوّنت - على مر تاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام - مخزونًا من «**ثقافة الكراهية السوداء**» للإسلام وأمته وحضارته . .

فنحن مطالبون بالحوار الموضوعى والصبور مع الإنسان الغربى، لتوضيح موقفنا الحقيقى من طبيعة العلاقات التى يجب أن تسود بين الحضارات - وبين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية على وجه الخصوص - وذلك لتحرير عقل الإنسان الغربى من سجن «**ثقافة الكراهية السوداء**» للإسلام وحضارته، تلك التى أشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية عبر قرون طويلة فى المجتمعات الغربية . .

كما أننا مطالبون بفتح نوافذ فكرنا هذا - حول موقفنا من طبيعة العلاقة بين الحضارات - على الحضارات غير الغربية - وخاصة حضارات الشرق والجنوب : الصينية . . والهندية . . واليابانية - وذلك لإقامة قدر من التساند بين حضارتنا وبين هذه الحضارات - التى تعانى، هى الأخرى، بشكل أو آخر فى علاقاتها بالغرب - . . وذلك خروجًا من المأزق الذى أراده ويريده مشروع الهيمنة الغربية : مأزق عزلنا عن هذه الحضارات، لمصارعتنا أولاً . . ثم الدوران عليها للخلاص منها بعد ذلك، والانفراد بالهيمنة على العالم كله . .

فالجهد الفكرى الذى يبذله العقل المسلم فى هذه القضية، يجب أن يتوجه إلى الإنسان الغربى أولاً . . وإلى دوائر الفكر والثقافة والسياسة فى الحضارات الشرقية أيضًا . .

٥- أن إمكانات التساند المتاحة أمام حضارتنا الإسلامية - فى معركة التصدى لمشروع الهيمنة الغربى، وممارساته المعاصرة لصراع الحضارات - ليست قائمة وموجودة فقط فى حضارات الشرق والجنوب . . بل إن لنا فى قطاعات واسعة من الفكر الغربى أنصارًا قد أبدعوا فى إنصاف الإسلام وحضارته إبداعات عظيمة . وهى شهادات شهود من أهل تلك الحضارة الغربية، يجب أن نتوسل بها لتحرير عقل الإنسان الغربى من «ثقافة الكراهية السوداء» الموجهة نحو الإسلام . . فلربما كانت هذه الكتابات الغربية المنصفة للإسلام وحضارته أفعل فى إزالة الأوهام الفكرية التى سادت المجتمعات الغربية - إزاء الإسلام - لعدة قرون[١] .

٦ـ أن ترتيب البيت العربى والإسلامى، والبدء بإقامة قواعد الحدود الدنيا الضرورية للتضامن والتكامل فى ميادين: الاقتصاد.. والثقافة.. والتشريع.. والتعليم.. وكذلك الترتيب والتعظيم «لأوراق» الإمكانات والطاقات الطبيعية والبشرية فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. وبعث الحياة والحيوية فى منظماتنا الإقليمية:ـ الجامعة العربية.. ومنظمة المؤتمر الإسلامى ـ هو واحد من أمضى أسلحة تصحيح صورة ديننا وأمتنا وحضارتنا فى عيون الآخرين.. وفعالية هذا السلاح أقوى بكثير من مئات ـ بل وآلاف ـ المؤتمرات التى نعقدها لتحسين الصورة، ولصد طوفان «ثقافة الكراهية السوداء» الذى يصبه الغرب الاستعمارى على الإسلام والمسلمين..

إن ترتيب البيت العربى والإسلامى، وتعظيم الإمكانات المادية والبشرية للمسلمين، هو الذى سيجبر مؤسسات الهيمنة الغربية على إعادة النظر فى طموحاتها وأطماعها المجنونة للسيطرة على عالم الإسلام.. ومن ثم يجبرها على التقليل من معدل الاندفاع فى طريق الصراع والصدام.. الأمر الذى يعدّل ـ ولا بد ـ فى الخطاب الغربى تجاه الإسلام..

٧ـ أننا يجب أن نتخلص من وهم النظر إلى «نزعة صدام الحضارات» والتى دار الحديث حولها كثيراً، منذ مقال «صامويل. ب. هنتنجتون» سنة ١٩٩٣م، باعتبارها مجرد «معركة فكرية»، بين دعاة حوار الحضارات وبين الداعين لصدامها.. ذلك أن هنتنجتون لم يكن ـ فى مقاله، الذى تحول إلى كتاب ـ «**داعيًا ومبشراً**» بصدام الحضارات، وإنما كان فى حقيقة الأمر «**كاشفًا**» عن الواقع التاريخى لصدام الحضارات كما تمثل فى علاقة الغرب بالإسلام.. ثم كان ـ مع ذلك ـ «**مشيراً**» على صاحب القرار الأمريكى، أن **يحيّد** الحضارات غير الإسلامية، ويبدأ صراعة مع حضارتنا.. ثم مع الحضارات الصينية ـ الكونفوشيوسية ـ.. ليعود، بعد كسر شوكتيهما، إلى احتواء الحضارات الأخرى المستعصية على الأمركة والتغريب..

فصدام الحضارات هو «**فكر**» يعبر عن «**واقع**» ويبرر «**للممارسات**» القائمة.. ومن ثم فإن الوقوف فيه عند أطروحات «هنتنجتون» و«فوكوياما» ـ حول «نهاية التاريخ» ـ هو اجتزاء يعزل فكر هذا الطور المعاصر لهذه النزعة الغربية عن جذورها التاريخية والحديثة.. كما أن الوقوف فى رؤية «ممارسات» هذه النزعة الغربية عند مآسى الواقع المعاصر ـ فى فلسطين.. والعراق.. وأفغانستان.. وأمثالها ـ هو اجتزاء بعزل هذه الممارسات والمآسى المعاصرة عن سياقاتها وجذورها التاريخية..

ـ ٢ ـ

الممارسات التاريخية الغربية لصراع الحضارات

فعلى مستوى «ممارسات» الغرب إزاء الشرق، يجب أن يعى العقل المسلم أن الغرب قد مارس الصراع والصدام والهيمنة ـ أو سعى إلى ذلك وحاوله ـ على امتداد سبعة عشر قرنًا من جملة قرون تاريخ الاحتكاك بيننا وبينه ـ البالغة . . أربعة وعشرين قرنا ـ . . !!

لقد احتل الغرب الإغريقى . . والرومانى . . والبيزنطى ـ الشرق، وقهره سياسيًّا دينيًّا وحضاريًّا . . ونهبه اقتصاديًّا، عشرة قرون . . من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ ـ ٣٢٣ق . م] ـ فى القرن الرابع قبل الميلاد ـ وحتى «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م] ـ فى القرن السابع للميلاد ـ عندما ظهر الإسلام، وحررت فتوحاته الشرق من هذا الاستعمار الغربى القديم . .

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت فى الفكر الغربى ـ الدينى . . والسياسى . . والثقافى ـ نزعات تشويه الإسلام، والافتراء على رسوله ﷺ والازدراء بشعوبه وحضارته . . وذلك لشحن الوجدان الغربى بـ «**ثقافة الكراهية السوداء**» التى تحرص على إعادة اختطاف الشرق من الإسلام . .

* فكانت دعاوى الغرب أن المسلمين إنما يعبدون ثالوثا!! . . هو :

١ ـ «أبوللين ـ Apollin» .

٢ ـ و«تيرڤاجانت ـ Tervagant» .

٣ ـ و«محمد ـ Mohamed»(٢) .

* وأن «محمدًا ﷺ كان رجلاً عاش حياة داعرة، وتجاوز خبثه كل حدود الدناءة والانحطاط . . ولم يتورع خيالهم عن الادعاء بأن رسول الإسلام كان فى الأصل

كاردينالا كاثوليكيّا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق انتقامًا من الكنيسة . . واعتبرت أوروبا المسيحية، فى القرون الوسطى، محمدًا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»(٣) .

* أما أكبر فلاسفة الكاثوليكية - القديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] فإنه يتحدث عن رسول الإسلام ﷺ فيصوره للثقافة الكاثوليكية بقوله :

«لقد أغوى محمد الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية . . وحرّف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالته إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»!!(٤) .

*أما رأس البروتستانتية «مارتن لوثر» [١٤٨٣-١٥٤٦م] - فهو القائل عن القرآن الكريم :

«**أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن . المليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع**»!! وهو القائل عن رسول الإسلام ﷺ :

«**إنه خادم العاهرات وصائد المومسات!! . . وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية ! ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب - ضد الأتراك - ويضحوا بأموالهم وأنفسهم**»!!(٥) .

هكذا تأسست فى الثقافة الأوروبية أكاذيب الكراهية السوداء، ضد الإسلام وكتابه ورسوله - عليه الصلاة والسلام . . على الرغم من التكريم والتعظيم الذى جاء به الإسلام عن رموز النصرانية وغيرها من الشرائع السماوية!! . .

* أما صورة شعوب الأمة الإسلامية فى هذه الثقافة الغربية، فإنها تلك التى صنعتها الخيالات المريضة والمغرضة . . وأشاعتها بين العامة والدهماء بواسطة الملاحم الشعبية . . وبنص عبارة المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» [١٩١٥ - ٢٠٠٤م] :

«فلقد حدث (فى نظر الأوروبيين فى مطالع العصور الوسطى) تحول فى القوى والأقسام البعيدة من الشرق، وقام شعب هائج (هم العرب أو السراسنة) (البدو)، عُرف بالسلب والنهب. . قام هذا الوباء الموجع فاجتاح وخرب أراضى واسعة، وانتزعها من قبضة المسيحية. .

كما حدث أن الكتاب اللاتين الذين أخذوا بين سنة ١١٠٠م وسنة ١١٤٠م على عاتقهم إشباع حاجة الإنسان العامى، يوجهون اهتمام العامة نحو حياة محمد، دون أى اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان«لجهل الخيال المنتصر» . . فكان محمد - فى عرفهم - ساحرًا، هدم الكنيسة - فى أفريقيا وفى الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية . . فهو كبير آلهة السراسنة . . والصنم الرئيسى فى الثالوث الذى يعبده المسلمون . . تصنع تماثيله من مواد غنية وذات أحجام هائلة»!! . . [٦].

وغير شهادة «مكسيم رودنسون» . . تشهد المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكه» على فظاعة الصورة التى صنعها الغرب للعرب والمسلمين ودينهم ورسولهم ﷺ ليشحن بها وجدان العامة فى الصراع ضد حضارة الإسلام . . فتقول:

«لقد استقر فى أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين: الازدراء الأحمق الظالم للعرب، الذين يصمهم - جهلاً وعدوانًا - بأنهم:

«رعاة الماعز والأغنام، الأجلاف، لابسو الخرق المهلهلة . . عبدة الشيطان، ومحضرو أرواح الموتى، والسحرة، وأصحاب التعاويذ وأعمال السحر الأسود، الذين حذقوا هذا الفن، واستحوذ عليهم الشيطان، تحرسهم فيالق من زبانيته من الشياطين، وقد تربع على عرشهم الصنم الذهبى«الماهومد» - «مخيميد» - وقد ركعت تحت أقدامه قرابين بشرية، يذبحها أتباعه قربانًا وزلفى إليه . .

فهم خلق غريب، غير متحضرين، متطفلون على الحضارة الهللينية الإغريقية، مستبعدون من العالم الهلليني . . وأقصى القول فى هؤلاء المحمديين الدنيئين: إنهم ديدان حقيرة . . وسفلة وأوغاد . . أعداء الله . . وأعداء المسيح؛ لأنهم يعبدون الدرك الأسفل من الشياطين. . . وعالمهم هو عالم الخرافات والأساطير . . وبلادهم بلاد

الأضاحى البشرية من أجل صنم ذهبى، اسمه محمد، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين . . »!!![٧].

تلك هى الصورة التى صنعتها مؤسسات الهيمنة الغربية للإسلام وأمته ورسوله وعالمه، وشحنت بها ـ كما تقول المستشرقة الألمانية «سيجريد هونكه» ـ «أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين» . .

وهى صورة لا تزال بقاياها حية فى الكتب المدرسية الأوروبية والغربية . . وفى أفلام هوليود . . وفى الإعلام الغربى، حتى القرن الواحد والعشرين! . .

* وإذا كانت الملاحم الشعبية قد مثلت ـ فى العصور القديمة ـ ما يمثله الإعلام فى عصرنا: الأوسع فى الانتشار . . والأشد فى التأثير . . فإن «ملحمة رولاند» ـ التى نظمها الشاعر القسيس «كونراد» ـ فى ريجنز بورج ـ سنة ١٣٠٠م ـ قد أشاعت فى أذهان الجماهير الأوروبية لعدة قرون الصورة التى تصف المسلمين بأنهم:

«الشعب الذى لا يروى تعطشه لسفك الدماء، والذى لعنه رب السماء . . فهم كفرة، وكلاب . . وخنازير فجرة . . وهم عبدة الأصنام التى لا حول لها ولا قوة . . لا يستحقون إلا أن يقتلوا وتطرح رممهم فى الخلاء، فهم فى جهنم بلا مراء».

وفى هذه الملحمة، يخاطب الشاعر القسيس الشعب المسلم، فيقول:

«إن مخمت . . قد أرسلنى إليك لأطيح رأسك عن كتفيك، وأطرح للجوارح جثتك، وأمتشق برمحى هامتك، ولتعلم أن القيصر قد أمر أن كل من يأبى أن تعمده الكنيسة، ليس له إلا الموت شنقًا أو ضربًا، أو حرقًا . . فهم جميعًا دون استثناء حزب الشيطان اللُّؤَماء، خسروا الدنيا والآخرة، وحل عليهم غضب الله، فبطش بهم روحًا وجسدًا، وكتب عليهم الخلود فى جهنم أبدًا»!![٨].

تلك لمحة خاطفة من «**ثقافة الكراهية السوداء**» التى صنعتها وأشاعتها مؤسسات الهيمنة الغربية، للإسلام ورسوله وأمته، فى صراعها الصليبى ضد عالم الإسلام والحضارة الإسلامية . .

وإذا كانت الإمبريالية الغربية ـ فى العصر الحديث ـ قد ورثت الأطماع الاستعمارية

الغربية فى ثروات الشرق، فإنها قد توسلت فى صراعها ضد الإسلام وحضارته بالكثير من الأكاذيب التى صنعها أسلافها الصليبيون للإسلام والمسلمين . .

ويشهد على ذلك المستشرق الفرنسى «مكسيم رود نسون» فيقول :

«لقد كانت الظاهرة التى لعبت الدور الأكبر فى تحديد طبيعة النظرة الأوروپية إلى الشرق، وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر، هى الأمپريالية . . وكان من المحتم أن يؤدى ذلك إلى تشجيع التمركز حول الذات، وهى صفة طبيعية فى الأوروپيين، كانت موجودة دائمًا، ولكنها اتخذت صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين» . .

لقد نسب المبشرون - [المنصِّرون الأوروپيون] - نجاحات الدول الأوروپية إلى الدين المسيحى، مثلما عزو إخفاق العالم الإسلامى إلى الإسلام، فصورت المسيحية على أنها بطبيعتها ملائمة للتقدم، وقرن الإسلام بالركود الثقافى والتخلف، وأصبح الهجوم على الإسلام على أشد ما يكون، وبعثت حجج العصور الوسطى بعد أن أضيف إليها زخارف عصرية . . وبفضل الصحافة والأدب الشعبيين وكتب الأطفال، أخذت هذه النظرة تتسرب إلى عقول الجماهير الغفيرة من الأوروپيين، ولم تخل من تأثير على العلماء أنفسهم، وخصوصًا حين كانوا ينبرون لتقديم النصح إلى أولئك الذين كانوا يوجهون سياسات الحكومات الاستعمارية»[٩] .

هكذا ورثت الإمپريالية الغربية - فى صراعها مع حضارة الإسلام - أكاذيب العصر الصليبى . . وغدا هذا الميراث الكاذب «علمًا» يقدمه «العلماء» الذين خدموا وزارات المستعمرات، لأساطين السياسة الاستعمارية الغربية فى العصر الحديث - عصر العلم والعقلانية والتنوير ! !

ومع «مكسيم رودنسون» يشهد على ذلك العالم الإنجليزى «مونتجمرى وات» عندما يقول : «لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (موضة) تقديم القرآن للقارئ الأوروپى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية، بالإضافة لقليل من الزيادة المحددة . ومعنى ذلك انتفاء الجدة والأصالة .

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التى سادت فترة الحروب

الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التى كانت ترتعد فرائصها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام»![١٠].

وهكذا استمر التزييف الثقافى سلاحًا غربيًا فى الصراع الحضارى الغربى ضد الإسلام، عبر تاريخ هذا الصراع.. ويشهد على ذلك طوفانه الذى انهال على الإسلام وأمته وحضارته، بصحبة الحرب «الصليبية - الإمبريالية» الجديدة، التى شنت على الإسلام وعالمه، عقب قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م فى أمريكا..

* * *

لقد صنعت أوروبا - فى عصورها الوسطى - كل ذلك الافتراء على الإسلام ورسوله وقرآنه وأمته وحضارته، لتأجيج نزعة الصراع وثقافة الصدام التى تشحن الوجدان الغربى، وتجيش الجيوش للحملات الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م] - التى دامت قرنين من الزمان - والتى لم تفلح لغتها الدينية فى إخفاء مطامعها المادية ومقاصدها الاقتصادية.. حتى فى خطاب البابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨ - ١٠٩٩م] - الذى أشعل تلك الحروب -.. والذى وجهه إلى فرسان الإقطاع اللاتين.. وقال فيه:

«يا من كنتم لصوصًا كونوا الآن جنودًا.. لقد آن الزمان الذى فيه تحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هى فى حق الله عينه.. وليست هى لاكتساب مدينة واحدة.. بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزاينها العديمة الإحصاء!..

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبنًا وعسلاً.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصبة المشابهة فردوسًا سماويًا..

اذهبوا وحاربوا البربر - [يقصد المسلمين] - لتخليص الأرض المقدسة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية - [مفاتيح الجنة التى صنعها البابا!!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزاين المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسمًا وميراثًا..

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدوانًا . . ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا ، فاغسلوها بدم غير المؤمنين - [أى المسلمين] . . »!![11] .

لقد أعطى البابا الذهبى «الفرسان - اللصوص» مفاتيح الجنة ، ليحاربوا المسلمين ، وليغسلوا أيديهم المصطبغة بالدماء فى حروبهم الإقطاعية ، يغسلوها ويطهروها بدماء المسلمين . . وليمتلكوا كل أقاليم آسيا الخصبة ، التى تدر لبنًا وعسلاً ، و التى تشبه - فى الخصب - فردوسًا سماويّا . . وذات الخزائن التى تعز على الإحصاء!!! . .

هكذا غلّفت «**ثقافة الكراهية السوداء**» - الصليبية - الأطماع الاستعمارية ، فى الصراع الغربى ضد الإسلام وحضارته وعالمه . .

* * *

ولم تنته هذه «**النزعة الصراعية**» لدى مشروع الهيمنة الغربية بهزيمة الجيوش الصليبية ، وإزالة قلاعها الحربية وكياناتها الاستيطانية من الشرق الإسلامى [٦٩٠هـ ١٢٩١م] . . وإنما استمرت - فى صور متعددة : صليبية . . وإمپريالية - فمنذ إسقاط «غرناطة» فى سنة ٨٩٧ هـ يناير ١٤٩٢م . . بدأت حملات الالتفاف حول العالم الإسلامى ، تمهيدًا لضرب قلبه - الوطن العربى - لاحتواء عالم الإسلام . .

* فكرستوفر كولومپس [١٤٥١ - ١٥٠٦م] يجمع الذهب من «الدنيا الجديدة» - القارة الأمريكية - ليطلب من البابا «إسكندر السادس» [١٤٩٢ - ١٥٠٣م] تجييش «**خمسين ألفًا من الجنود المشاة ، وخمسة آلاف فارس ، لفتح الديار المقدسة**»!![12] .

كما يطلب - هذا الذى نعلّمه لأبنائنا باعتباره مجرد مكتشف جغرافى -!! . . يطلب من ملكى إسپانيا الصليبيين ، اللذين اقتلعا الإسلام من الأندلس ، واجتثا جذوره بالقتل والحرق والتنصير . . يطلب «كولومپس» من«فرديناند» [١٤٧٩ - ١٥١٦م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤ - ١٥٠٤م] تجييش حملة صليبية ، لانتزاع بيت المقدس من جديد . . فهدفه كما قال : «**هو فتح الديار المقدسة ، خلال ثلاث سنوات ، لاسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس**»![13] .

*و«فاسكودى جاما» [١٤٦٩ـ ١٥٢٤م] ـ بعد التفافه حول أفريقيا ـ يذهب لمحاربه المسلمين على شواطئ الهند [٩١٠هـ ١٥٠٤م] معلنا : «**أننا جئنا لهدفين اثنين : المسيحية . . والتوابل**»!!

* و«ماجلان» [١٤٨٠ ـ ١٥٢١م] ـ الذى تعلّم الثقافة المغشوشة أبناءنا أنه مجرد رحالة ومكتشف جغرافى ـ هو الذى قُتل على شواطئ الفيليپين [٩٢٧هـ ١٥٢١م] وهو يحارب المسلمين . . لتبدأ، منذ ذلك التاريخ، حلقات تنصير الفيليپين المسلمة، والتى كانت عاصمتها ـ «مانيلا» ـ اسمها يومئذ «أمان الله»! . .

* ثم تأتى حملة بونابرت [١٧٦٩م ـ ١٨٢١م] على مصر والشرق [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] لتبدأ مسلسل ضرب قلب العالم الإسلامى . . وهو المسلسل الذى تتبدل ـ فى مراحله ـ القيادات والإمبراطوريات الغربية . . مع بقائه حلقات متوالية ومتصلة فى هذه الممارسات الصراعية الغربية ضد عالم الإسلام وحضارته . .

* * *

- ٣ -

وفى العصر الحديث

إذن . . فنحن أمام تاريخ غربى قديم لإنكار الآخر - الدينى . . والحضارى - وللتمركز حول الذات . . وأمام مخزون رهيب من «**ثقافة الكراهية السوداء**» . . يغلف ويبرر للممارسات الصراعية الاستعمارية الغربية ضد الشرق الإسلامى . .

ولسنا بإزاء مجرد «بدعة» اخترعها مفكر يهودى اسمه «صامويل هنتنجتون» - كما يريد المثقفون المتغربون أن نتصورها . .

* فقبل «هنتنجتون» بأكثر من قرن ونصف من الزمان . . كتب المستشرق الإنجليزى «باركر (سير أرنست) - Sir Ernest Barker» [١٨٧٤ - ١٩٦٠م] عن تجذّر هذه النزعة الصدامية فى علاقات الغرب بالإسلام . . ورجوعها إلى تاريخ ظهور الإسلام . . فقال :

«إن الصدام الذى حدث بين بيعة الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته وبين دين الإسلام ومدنيته وشعوبه هو من أعظمها وأكبرها خطرًا . وربما جاز لنا القول إنه بدأ بهزيمة «هرقل»[٦١٠ - ٦٤١م] (أول الصليبيين) فى موقعه اليرموك [٦٣٦م] أمام قوات الخليفة عمر بن الخطاب» ! !

فالصدام الصليبى مع الإسلام، بدأ - برأى «باركر» - منذ ظهور الإسلام . . وتحريره الشرق من هيمنة الرومان . .

ثم يتحدث «باركر» عن استمرارية هذا الصدام بين الحضارتين . . بل ويتساءل : هل له نهاية؟ ! . . فيقول :

«لكن من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام؟ ! . لقد كان فى وقت من الأوقات

دينيا بالدرجة الأولى، وفى وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة. كان نضالاً بين شعوب مختلفة. . ولكنه بقى على الدوام صراعًا مختلطًا اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسية. وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع، بدأت فى ١٠٩٦م وانتهت فى ١٢٩١م - إذا ما حددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحى فى أرض سوريا - أما إذا نظرنا إلى الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية، فقد يصح لنا القول إنها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولومبس العالم الجديد. . »(١٤).

فبواعث هذا الصراع وهذا الصدام - الذى بدأ بظهور الإسلام - مستمرة - كما يقول «باركر» - حتى الغزوة الصليبية التى بدأت بإسقاط غرناطة. . وهى الغزوة التى لا يزال العالم الإسلامى يواجه تحدياتها حتى هذه اللحظات!!

* وفى «مؤتمر كولورادو» - الذى انعقد بأمريكا سنة ١٣٩٨هـ - مايو سنة ١٩٧٨م - لتنصير كل المسلمين. . تعلن المؤسسة الدينية البروتستانتية عن تجذر تناقضاتها وعدائها للإسلام. . فتقول:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية. . والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا. . ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاختراقه فى صدق ودهاء!! . . ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين!! . . وإنه بينما يوافق المنصرون على أن التحول إلى دين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم ما زالوا يشعرون أيضًا بأننا ينبغى أن نجبرهم على الدخول فى النصرانية!!!

ولكى يكون هناك تحوّل إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفرادًا وجماعات - خارج حالة التوازن التى اعتادوها! . . وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنى. . وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية! . . ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًا فى عملية التنصير! . . وإن إحدى معجزات

عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!! . .»[١٥].

هكذا أعلنت المؤسسة البروتستانتية الغربية: أنه لا بد من «**اختراق الإسلام فى صدق ودهاء**»! . . لتنصير كل المسلمين، وطى صفحة الإسلام من الوجود، اعتمادا على «**معجزة الكوارث المصنوعة**»حينا . . وبالقوة فى حين آخر!! . .

أما المؤسسة الكاثوليكية . . فلقد رفعت ـ فى الربع الأخير من القرن العشرين ـ شعار: «**أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م**» . .

فلما خيب الله آمالها، ولم تحقق أطماعها . . أخرت تاريخ تنصير أفريقيا إلى سنة ٢٠٢٥م!! . .

* وإمعانًا فى «أدبيات» النزعة الصراعية الغربية إزاء الإسلام وحضارته . . يعلن الكاردينال «بول بوبار» ـ مساعد بابا الفاتيكان، ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة:

«أن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوروبا وللغرب عمومًا. وأن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا لكى يلاحظ تفاوتًا متزايدًا بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم، ففى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية . . وفى مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما؟ . .

إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان»![١٦].

* ويأتى الكاردينال «جاكومو بيفى» ـ أسقف مدينة بولونيا ـ بإيطاليا ـ ليعلن ـ فى رسالته يوم ١٣ـ٩ـ ٢٠٠٠م: أنه لا تعايش بين المسيحية والإسلام:

«فإما أن تتحول أوروبا إلى المسيحية فورًا، وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا»!![١٧].

* فلما جاء الرئيس الأمريكي - والمفكر الاستراتيجي - «ريتشارد دنيكسون» - في ثمانينيات القرن العشرين - إذا به - في كتابه [الفرصة السانحة] - يذكّرنا بفاسكودى جاما [١٤٦٩ - ١٥٢٤م] الذى أعلن - فى القرن السادس عشر الميلادى - أن أهداف الغرب فى الشرق هى «المسيحية» و«التوابل» ! . . جاء «نيكسون» - فى أواخر القرن العشرين - ليعلن : «**أنه ليس لنا فى الشرق إلا البترول وإسرائيل**» ! . .

«**وأن الأصوليين المسلمين، الذين يحركهم حقدهم الشديد ضد الغرب، مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين و دولة. وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار**» . . !

وهو يدعو كل الغرب - الأمريكى والأوروبى . . البروتستانتى والكاثوليكى والأرثوذكسية الروسية - إلى التحالف ضد هذه الأصولية التى تريد بعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، وجعل الإسلام منهاجًا شاملاً لكل ميادين الحياة . .

ثم يدعو هذا الغرب إلى مناصرة العلمانية فى العالم الإسلامى «**ونموذجها تركيا الأتاتوركية التى تسعى إلى ربط المسلمين بالعالم المتحضر (الغرب) من الناحية السياسية والاقتصادية**» .

ولا يخجل «نيكسون» من التصريح بأن «**السياستين الأمريكية والغربية هما اللتان ستلعبان الدور الرئيسى فى تحديد الخيار الذى تختاره الشعوب المسلمة**» ! !

فهم الذين سيحددون لنا «الخيار العلمانى» . . ومع ذلك يسمونه «خيارًا تختاره الشعوب المسلمة» ! ! ولا ينسى «نيكسون» أن يذكّرنا - فى نهايات القرن العشرين - بأن صورتنا عند أغلب الأمريكيين هى ذات صورتنا فى الثقافة الصليبية فى العصور الوسطى ! . . فيقول :

«**إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء . . و يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير**

منطقيين، وأن سبب اهتمامنا بهم هو أن بعض زعمائهم يسيطرون - بالمصادفة - على بعض الأماكن التى تحوى ثلثى النفط الموجود فى العالم . . وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى . . »!![١٨]

فهل نستغرب - بعد قراءة هذا الذى كتب عن الإسلام والمسلمين وحضارتهم فى الثقافة الغربية . . وعن صورتنا فى الذهنية الغربية الأمريكية - قبل الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م - أن يأتى استطلاع رأى الأمريكيين - فى ديسمبر سنة ٢٠٠٤م - محبذًا - من قبل ٤٠٪ من الأمريكيين - حرمان المسلمين فى أمريكا - حتى المواطنين منهم - من الحقوق المدنية التى هى مفخرة أمريكا والأمريكيين؟!

* * *

- ٤ -

إعلان: الإسلام عدواً؟!

وفور سقوط المنظومة الماركسية - وانهيار أحزابها وحكوماتها وأحلافها سنة ١٤١١هـ سنة ١٩٩١م - «يعلن» الغرب عن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل «إمبرطورية الشر الشيوعية» - ومصطلح «الشر» هذا مصطلح دينى توراتى - من مزامير داود - أطلقه اليمين الدينى الأمريكى المحافظ - برئاسة الرئيس الأمريكى «ريجان» [١٩١١ - ٢٠٠٤م] على الشيوعية. . ثم جاء الرئيس «چورج بوش» - الصغير - ليطلقه على الإسلام والمسلمين، بعد وصفهم بـ «الأصولية» و «الإرهاب»! . .

وعن اتخاذ الغرب الإسلام عدواً، حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية، كتبت مجلة [شئون دولية] الصادرة فى «كمبردچ». . بانجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١م - معللة هذا «الإعلان الغربى» فقالت:

«إن الفكر الغربى المعاصر، الذى يميل إلى جعل الحضارة المسيحية - اليهودية/ الغربية هى الحضارة المهيمنة، وجعل أفكاره مطلقة - وليس مجرد ثقافة بين ثقافات عديدة يعج بها العالم - قد شعر الكثيرون من أبنائه بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتى، وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز فى المتناول!

إن الحساسيات الإسلامية - مقترنة بالقومية العربية - تعتبر، بصفه عامة، الخطر السياسى الرئيسى الذى يواجه الدول الغربية التى تسعى للقيام بدور نشط فى الشرق الأوسط. . وبالإضافة، إلى ذلك، فإن صعود الأحزاب التى تصف نفسها بأنها إسلامية فى السياسة الداخلية لطائفة عريضة من البلدان الإسلامية، وبصفة خاصة تلك الأقرب إلى أوروبا، أمر مرجح أن يؤثر على العلاقات بين تلك البلدان والغرب. .

ولذلك، كان الإسلام، من بين الثقافات الموجودة فى الجنوب، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة، وهى آفات من شأنها أن تؤدى إلى هلاك تلك المجتمعات ماديّا، فضلاً عن هلاكها المعنوى. .

لقد أصبح الدين يقتحم الشئون الدولية، بصورة متزايدة، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها. . وإن أوروبا، التى اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر، كان لا بد من أن تبحث عن آخر جديد يحل محل الاتحاد السوڤييتى والمعسكر الشرقى بعدما انهارت أيديولوچيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام - أو بمعنى أدق العالم الإسلامى القريب من أوروبا. .

والقضية هى ما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى، من خلال صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى/ الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعوّل عليها فى ديمقراطية علمانية؟؟ . . »[١٩].

فاستعصاء الإسلام على العلمنة، أى على الاستسلام فى صراع الغرب ضده وضد حضارته، قد جعله - بنظر الغرب - العدو الذى يمثل التحدى الحقيقى له بين ثقافات الجنوب. . ولذلك كان الإعلان عن أنه هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية! . .

* * *

*كل هذه «الممارسات» الصراعية. . والصياغات الفكرية المفصحة عن النزعة الصراعية فى الحضارة الغربية سابقة على وجود صامويل هنتنجتون - كما اتضح بجلاء فيما قدمنا من إشارات. .

فلما جاء هنتنجتون ليتحدث عن صدام الحضارات - فى مقاله الذى نشر سنة ١٤١٣هـ سنة ١٩٩٣م - قال:

«إن الحضارة هى كيان ثقافى . . وليس ثمة حضارة عالمية واحدة، بل عالم من الحضارات المختلفة . . وفى العالم سبع أو ثمانى حضارات كبرى، هى :

١ ـ الحضارة الغربية .

٢ ـ والصينية الكونفوشيوسية .

٣ ـ واليابانية .

٤ ـ والإسلامية .

٥ ـ والهندية .

٦ ـ والأرثوذكسية السلافية .

٧ ـ والأمريكية اللاتينية .

٨ ـ وربما الأفريقية .

وهى حضارات تتمايز عن بعضها البعض باللغة، والتاريخ، والثقافة، والعادات، وأهم من ذلك : الدين .

وأبناء هذه الحضارات المختلفة لديهم آراء مختلفة عن العلاقة بين الله والإنسان، والفرد والجماعة، والمواطن والدولة، والآباء والأبناء، والزوج والزوجة . وكذلك آراء متباينة عن الأهمية النسبية للحقوق والمسئوليات، والحرية والسلطة، والمساواة والتنظيم الهرمى .

وهذه الاختلافات هى نتاج قرون، ولن تختفى فى القريب العاجل، إذ إنها أكثر جوهرية من الاختلافات بين الأيديولوچية السياسية والنظم السياسية» .

وبعد هذا التحليل العميق ـ بل والعبقرى ـ الذى قدمه «هنتنجتون» لتعدد الحضارات العالمية . . وتمايزها . . ومقومات هذا التمايز . . تحدث عن الموقف الغربى المنحاز لفلسفة الصراع بين الحضارات، لا كموقف ذاتى اختاره «هنتنجتون» ليدعو إليه ويبشر به . . وإنما «**كحتمية واقعية**» للموقف الغربى تجاه الحضارات غير الغربية . . فهو مجرد «**واصف**» لتاريخ وممارسات هذا الصراع الغربى مع الحضارة الإسلامية . . وذلك عندما يقول :

«إن الصـراع على طول خط الخلل بين الحضـارتين الغـربيـة والإسـلامـيـة يدور منذ ١٣٠٠ عام، وعلى كلا الجانبين يُنظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه صدام حضارات».

وهو بالنسبة للمستقبل - مستقبل العلاقة بين الغرب والحضارة الإسلامية - يفصح عن المخططات التى تعلنها كثير من دوائر صنع القرار الغربى، ومراكز الفكر الاستراتيجى الغربى - وهو مدير أحد تلك المراكز بجامعة هارڤارد الأمريكية - يفصح - ولا يخترع - عن ما هو معلن عن أن الإسلام هو الخطر الأخضر الذى حل محل الخطر الأحمر وإمبراطورية الشر الشيوعية . . فيقول:

«إن البؤرة المركزية للصراع، فى المستقبل القريب، سوف تكون بين الغرب والدول الإسلامية والآسيوية . .».

وبعد هذا «الإفصاح» - الذى يشكر الرجل عليه - عن «واقع الموقف الغربى» من صراع الحضارات - تاريخيًا . . ومستقبلاً - يأتى دور «هنتنجتون» - كمفكر استراتيجى، يهودى الديانة - ليشير على حضارته الغربية، وقيادتها الأمريكية، بكيفية إدارة هذا الصراع الحضارى مستقبلاً . . ومراحل هذا الصراع . . وأولويات المعارك فيه . . فيشير بضرورة تقسيم مراحل الصراع الحضارى الغربى، ضد الحضارات غير الغربية، إلى مرحلتين:

- **الأولى** - القريبة -: هى مرحلة «المدى القصير»، وفيها ينصح «هنتنجتون» الغرب بتوحيد عالمه الحضارى، وتجييش كل أدوات الصراع - من آلة الحرب، إلى الاقتصاد إلى السياسة، إلى الثقافة، إلى القيم، إلى المؤسسات الدولية - وتركيز الصراع ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية . . فيقول:

«إنه، على المدى القصير، من مصلحة الغرب أن يعزز تعاونًا أكبر، وتوحيدًا فى نطاق حضارته، وعلى وجه الخصوص بين مكونيها: الأوروپى والأمريكى الشمالى . .

١- وأن يدمج مجتمعات شرق أوروپا وأمريكا اللاتينية فى الغرب، وهى مجتمعات ذات ثقافة قريبة من ثقافة الغرب.

٢- وأن يعزز علاقات التعاون مع روسيا واليابان، ويحافظ عليها . .

٣ـ وأن يحول دون تصعيد الصراعات المحلية بين الحضارات إلى حروب كبرى بين الحضارات . .

٤ـ وأن يحد من توسع القوة العسكرية للدول الآسيوية والإسلامية . .

٥ـ وأن يخفف من تقليص القدرات العسكرية الغربية . .

٦ـ وأن يحافظ على التفوق العسكرى شرق وجنوب غرب آسيا . .

٧ـ وأن يستغل الخلافات والصراعات الغربية فى الحضارة الأخرى . .

٨ ـ وأن يقوى المؤسسات الدولية التى تعكس وتسوّغ المصالح والقيم الغربية ، وتضفى عليها الشرعية . .

٩ـ وأن يروج لاشتراك الدول غير الغربية فى هذه المؤسسات» .

تلك هى «معالم خطة هنتنجتون» للمدى القصير ، والمرحلة الأولى من صراع الغرب الحضارى ضد الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية . . وهى «معالم» قد أصبحت «برنامجًا» يضعه الغرب ـ بقيادة أمريكا ـ فى الممارسة والتطبيق . . وخاصة بعد«سنوح الفرصة» عقب قارعة سپتمبر سنة ٢٠٠١م فى أمريكا . . وليست ، كما يحلو للمنافقين المتغربين مجرد «خرافة» أطلقها «هنتنجتون» حول «ما يسمى بصراع الحضارات» ! . .

إننا نحترم «العدو» الذى يعلن عن«واقع العداء» . . أكثر من المنافق الذى يسعى إلى ستر عورات الأعداء !

ـ أما **المرحلة الثانية** ـ من هذا الصراع الغربى ضد الحضارات غير الغربية ـ مرحلة «المدى الطويل» ـ فهى ـ بتعبير «هنتنجتون» ـ : مرحلة الاحتواء الغربى للحضارات غير الغربية ، التى نجحت فى «تحديث» واقعها ، لكنها احتفظت بذاتيتها وهويتها الحضارية غير العربية . . أى أنها أنجزت لونًا من «التحديث» غير الغربى ، فأقلعت من مرحلة التخلف ، لكن ليس إلى فضاء الذوبان فى التغريب ! . .

فبعد المرحلة الأولى من هذا الصراع الحضارى . . مرحلة كسر شوكة الحضارة الإسلامية ، والحضارة الصينية . . تأتى هذه المرحلة الثانية ـ مرحلة احتواء الغرب

للحضارات التى حيّدها إبان المرحلة الأولى من هذا الصراع . . وبعبارات «هنتنجتون» ـ التى يخطط فيها لصانع القرار الأمريكى والغربى :

« . . أما على المدى الطويل، فسيكون اتخاذ إجراءات أخرى أمرًا مطلوبًا. فالحضارة الغربية هى حضارة غربية وحديثة معًا. وقد حاولت الحضارات غير الغربية أن تكون حديثة دون أن تصبح غربية. وحتى يومنا هذا لم تنجح فى هذا المسعى إلا اليابان. وسوف تواصل الحضارات غير الغربية محاولاتها للحصول على الثروة والتكنولوچيا والمهارات والمكنات والأسلحة، التى تمثل جزءًا من كون الحضارة حديثة. كذلك ستحاول تلك الحضارات أن توائم هذه الحداثة مع ثقافتها وقيمها التقليدية. أما قوتها الاقتصادية والعسكرية فسوف تزيد بالنسبة للغرب. ومن ثم، يتوجب على الغرب ـ على نحو متزايد:

أن يحتوى تلك الحضارات الحديثة غير الغربية، التى تقترب قوتها من قوة الغرب، لكن قيمها ومصالحها تختلف إلى حد كبير عن قيم الغرب ومصالحه. وسوف يستلزم ذلك من الغرب أن يحتفظ بالقوة الاقتصادية والعسكرية اللازمة لحماية مصالحه فيما يتعلق بهذه الحضارات» ![٢٠] .

هكذا عبر وأفصح «صامويل . ب . هنتنجتون» عن الرؤية الغربية للمستقبل الحضارى فى العالم الذى نعيش فيه . .

فالغرب يتصور حضارته منفردة «بالعرش الحضارى» العالمى . . وهى متمركزة حول ذاتها، لا تعترف بحق الحضارات الأخرى فى مشاركتها النفوذ والخيرات فى هذا العالم . . بل إنها تريد تغريب العالم، وعولمة نموذجها على العالمين . . فهى المركز والمنهاج والطريق الذى يجب على الآخرين تقليده، أو اللحاق به، لتبنيه . . حداثة كان هذا النموذج، أو ما بعد الحداثة ! . . لأن الليبرالية الرأسمالية، هى ـ بالنسبة للعالم كله ـ نهاية التاريخ . . و«القدَر الغربى» الذى ليس منه فرار ! . .

* * *

ولنا، هنا، أن نسأل : من الذى يستحق منا التقدير والاحترام :

ـ صامويل هنتنجتون . . الذى انحاز إلى التعددية الحضارية فى عالمنا . . ثم أفصح

عن الموقف الغربى من هذه التعددية الحضارية؟ . . فأعلن ما يفكر فيه الغرب . . ويضعه فى الممارسة والتطبيق؟ . .

ـ أم هؤلاء الذين يخدعوننا عندما يتحدثون عن وحدة الحضارة العالمية . . ثم يخدرون أعصابنا عن الواقع المر ، بالحديث عن «خرافة صراع الحضارات» . . جاعلين من الآمال فى حوار الحضارات ستاراً يحاولون به حجب هذا الواقع عن العقول والأبصار؟ ! . .

أعتقد ـ والله أعلم ـ أن صامويل هنتنجتون هو الجدير بالاحترام ! . .

ثم . . إن علينا أن ندرك ـ وأن ننبه ـ على أن فى الغرب قوى أخرى . . انتقد بعضها تاريخ الغرب فى مصارعة الحضارة الإسلامية . . وانتقد التصورات المشوهة التى قدمها وكرّسها الغرب الاستعمارى عن الإسلام ورسوله وأمته وحضارته ـ ولقد أشارت هذه الدراسة ـ واستشهدت ـ بفكر عدد من هؤلاء العلماء الغربيين ـ . .

كما أن بعض هذه القوى الغربية الشريفة ـ ومعها جماهير واسعة من الذين يعانون ـ فى الغرب ـ من ويلات حروب الصراعات الحضارية ، والذين يدفعون الأثمان الباهظة للحروب الاستعمارية . . إنما يقفون معنا فى خندق الرفض لفلسفة صراع الحضارات . .

وكما سبق وأكدت هذه الدراسة . . فإن المشكلة فى هذه «الآفة» هى مع مشروع الهيمنة الغربية . . وليس مع الإنسان الغربى بحال من الأحوال !

* * *

أما «فوكوياما» ـ المفكر الاستراتيجى الأمريكى ـ فلقد دعا ـ فى سياق فكر النزعة الصراعية الغربية ضد الإسلام ـ إلى فرض النموذج الغربى على العالم ، باعتباره «نهاية التاريخ» . . كما دعا إلى شن «حرب داخل الإسلام» تجعله إسلاماً أمريكيّاً ، وذلك لنزع سلاح مقاومة الأمة الإسلامية لممارسات الهيمنة الأمريكية ، وتطويع هذه الأمة لقبول «الحداثة . . والعلمانية» الغربية . . فقال :

«إن الحداثة ، التى تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ، ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية ، وأن المؤسسات التى تجسد مبادئ الغرب الأساسية

ستستمر فى الانتشار عبر العالم . . وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم تقل جميعها - لكن السؤال الذى نحتاج إلى طرحه هو :

- هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم؟ أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث هذه؟

ثم يجيب «فوكوياما» عن هذا التساؤل الذى طرحه، الإجابة التى تحمل أخطر الدلالات فى هذه القضية . . قضية صراع الحضارات . . بل وحرب الحضارات!! . . فيقول :

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة . . فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة : التسامح الدينى . . والعلمانية نفسها . .

وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها - لو أنها فقط استطاعت ذلك - فإنه الأصوليين المسلمين يرون فى هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربى . .

لذلك، فإن المسألة ليست - ببساطة - حربًا على الإرهاب - كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [؟!] - . . وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هى السياسة الخارجية فى فلسطين، أو نحو العراق. وإن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الدينى جميع القيم الأساسية الأخرى . . إن الصراع الحالى ليس - ببساطة - ضد الإرهاب . . ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحداثة الغربية . . وإن التحدى الذى تواجهه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من معركة صغيرة ضد الإرهاب . . إنه يشكل تحديًا أيديولوچيا هو، فى بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية!! . .

وإن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحداثة الغربية، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الاساسى حول الدولة العلمانية»؟! [٢١].

هكذا وضح تمامًا - فى «إعلان الحرب» هذا - أن رفض الإسلام للقيم الحداثية الغربية، وبالذات للعلمانية.. هو السبب الأول فى هذا الصراع الحضارى الغربى - الأساسى - ضد الإسلام!!.. وأن استعصاء الإسلام على العلمنة ورفض المسلمين لها هو سبب الصراع.. لأنه رفض للذوبان فى النموذج الغربى، والتبعية الحضارية له.. أما الحديث عن«الإرهاب» فهو ستار لحجب حقيقة الخلاف وأسباب الصراع.. وحتى الحرب الشرسة التى تتعرض لها بلاد إسلامية هى «**نتيجة**» وليست «**السبب**» فى هذا الصراع!!

ومرة أخرى نذكر بأن مجلة [شئون دولية] قد كتبت سنة ١٩٩١م: أن السبب فى اتخاذ الغرب الإسلام عدوا، هو استعصاء الإسلام على العلمنة، ومن ثم تمثيله التحدى الثقافى الوحيد للغرب.. وها هو «فوكوياما» يكتب - فى(النيوزويك) الأمريكية - بعد أحد عشر عاما من ذلك التاريخ أن سبب الحرب على الإسلام، هو أنه «**وحده الرافض للمبدأ الأكثر أساسية للحداثة الغربية والقيم الأمريكية.. مبدأ العلمانية!!**».

ولقد كان «هنتنجتون» صريحًا كل الصراحة عندما خيرنا - عقب قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م - بين قبول «**حرب داخل الإسلام، تجعله إسلامًا ليبراليًا.. حداثيًا.. يقبل العلمانية والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله**».. وبين«حرب على العقيدة الإسلامية الأصولية الرافضة للعلمانية»؛ لأن هذا الرفض للعلمانية هو «**أخطر من الشيوعية**»!!

وعلى الذين يستغربون وضع الرفض الإسلامى للعلمانية فى مستوى أكثر خطورة من الشيوعية - بالنسبة لأمريكا والغرب - أن يتذكروا، أن الشيوعية - مع خلافها الأيديولوچى فى المسألة الاجتماعية مع الليبرالية الرأسمالية - إلا أنهما معا إفرازات للحضارة الغربية.. ويشتركان معا - الشيوعية والليبرالية - فى العلمانية، التى هى - كما قال «فوكوياما» - المبدأ الأكثر أساسية فى الحداثة الغربية!

وعلينا أن نتذكر ما قاله «هنتنجتون» من أن الحضارات تمايز بينها «الثقافة». . فخلاف الإسلام مع الحداثة الغربية هو بالفعل أكثر أساسية من ذلك الشقاق - الشيوعى الليبرالى - الذى حدث داخل الحضارة الغربية. . والذى طويت صفحته سنة ١٩٩١م!!

* * *

- ٥ -
أمركة الإسلام!

فى منتصف القرن العشرين، كتب الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م]: «**إن أمريكا تريد إسلامًا أمريكانيًا، يمكن أن يُستفتَى فى منع الحمل، وفى نواقض الوضوء . . ولكنه لا يُستفتَى أبدًا فى أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالى أو أوضاعنا السياسية أو القومية، أو فيما يربطنا بالاستعمار من صلات . . تريد إسلامًا لا يقاوم الاستعمار ولا الطغيان . . وإنما يقاوم، فقط الشيوعية . . وهى لا تريد للإسلام أن يحكم؛ لأنه حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلّمها إعداد القوة لمحاربة الاستعمار والشيوعية معًا؛ لأنهما - كليهما - وباء واعتداء**»[٢٢].

وعقب قارعة سبتمبر - بأمريكا - كتب «هنتنجتون» يدعو إلى «**حرب داخل الإسلام . . حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية . . والعلمانية الغربية . . والمبدأ المسيحى: فصل الدين عن الدولة**»[٢٣].

وفى ذات التاريخ كتب «فوكوياما»: «**إن هناك بعض الأمل فى ظهور فكر إسلامى أكثر ليبرالية؛ بسبب المنطق الداخلى للعلمانية السياسية!**»[٢٤].

وفى سنة ٢٠٠٤م أصدرت «مؤسسة راند» الأمريكية - وهى واحدة من مؤسسات الدراسات الاستراتيچية - أصدرت تقريراً - قدمته إلى صانع القرار الأمريكى - فصلت فيه خطة «**إعادة بناء الإسلام**» بالتعاون بين أمريكا والحداثيين والعلمانيين - فى العالم الإسلامى - مع الاستفادة من بعض التقليديين . . لهزيمة الأصولية الإسلامية والأصوليين . .

وفى هذا التقرير - [خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامى] - الذى فصّلت فيه «مؤسسة راند» ما دعا إليه - إجمالاً - كلٌّ من «هنتنجتون» و «فوكوياما» . . نقرأ بالنص:

«إن الإسلام المعاصر هو فى حالة تصعيد، حيث يدخل فى صراع داخلى وخارجى على قيمه وهويته ووضعه فى العالم . .

وإن الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الصناعى الحديث والمجتمع الدولى بأسره سوف يفضل عالما إسلاميا يأتلف مع باقى النظام العالمى والغربى . .

ولذلك، لا بد من تشجيع عناصر داخل الخليط الإسلامى، ممن يكونون أكثر توافقا مع الحداثة الغربية . .

والمسلمون مختلفون فى طريقة التصرف حيال هذا الوضع :

* فالأصوليون يرفضون قيم الثقافة الغربية المعاصرة . .

* والعلماء التقليديون يريدون مجتمعًا محافظًا، وهم فى ريبة من الحداثة والتغيير . .

* والعلمانيون يريدون أن يقبل العالم الإسلامى الفصل بين الدين والدولة، واستنساخ سلوك الديمقراطيات الغربية، مع إرجاع الدين إلى نطاق الحياة الخاصة بين كل شخص وربه . .

* أما الحداثيون، فإنهم يريدون العالم الإسلام جزءا من الحداثة العالمية، وهم يريدون تحديث الإسلام كى يواكب العصر . .

والحداثيون والعلمانيون هم الأقرب إلى الغرب، فى ضوء القيم والسياسات . . ولذلك، يجب علينا :

أولاً : دعم الحداثيين . . فهم، من بين كل الجماعات، الأكثر إخلاصًا فى تبنى قيم وروح المجتمع الديمقراطى الحديث . . علينا دعمهم . . وذلك :

١ـ بنشر وتوزيع أعمالهم ـ فى شرح وطرح الإسلام ـ بتكلفة مُدَعّمة . .

٢ـ وتشجيعهم على الكتابة للجماهير والشباب . .

٣ـ وتقديم آرائهم فى مناهج التربية الإسلامية المدرسية . .

٤ـ وإعطائهم منصات شعبية للتواصل مع الجماهير . .

٥ـ وجعل آرائهم وأحكامهم فى القضايا الكبيرة ـ للتأويل والفهم الدينى ـ متاحة للجمهور، حتى يمكن أن تنافس آراء وأحكام الأصوليين والتقليديين . .

٦ـ وتيسير وتشجيع الوعى بالتاريخ السابق على الإسلام . . والثقافة اللا إسلامية . .

٧ـ وتشجيع تأويلهم للنص الدينى الحرفى، الذى نعتبره تاريخا وأسطورة! . .

ثانيا: دعم العلماء التقليديين ضد الأصوليين . . فالتقليديون هم قوة مفيدة ومضادة للأصوليين، وهم يتمتعون بشرعية واسعة وعامة فى أعين الشعوب الإسلامية . . وهم منفتحون، يسعون للحوار بين الأديان . . ولذلك، فإن علينا تشجيعهم . . بواسطة:

١ـ نشر نقد العلماء التقليديين للعنف والتطرف . .

٢ـ وتشجيع الخلافات بين التقليديين والأصواليين . .

ثالثا: مواجهة ومعارضة الطرح الأصولى للإسلام: فالأصوليون هم الأكثر رفضا، وبشكل أساسى وكلى، للديمقراطية والقيم الأساسية للمجتمع المدنى الحديث . .

رابعًا: دعم العلمانيين ـ بشكل انتقائى ـ: أى باستثناء العلمانيين القوميين واليساريين المعادين للولايات المتحدة الأمريكية ـ فالعلمانيون هم حلفاؤنا الطبيعيون فى العالم الإسلامى . . وذلك عن طريق:

١ـ تثبيط التحالف العلمانى مع القوى المضادة للولايات المتحدة الأمريكية . .

٢ـ وتشجيع إدراك أن الأصولية هى العدو المشترك . .

٣ـ ودعم فكرة أن الدين والدولة يمكن أن ينفصلا فى الإسلام أيضا، وأن هذا لا يهدد العقيدة الإسلامية . .

أما الهدف من وراء كل ذلك . . فهو إعادة بناء الدين الإسلامى، فى ضوء العصر الإسلامى الجديد . . ليأتلف مع باقى النظام العالمى والغربى . . وليكون أكثر توافقا مع الحداثة الغربية . .

إن الإسلام ليس أكثر حصانة من الأديان الأخرى الكبرى فى العالم . وإن الإجماع بين الحضارات قادر على تغيير القيم، بما فيها قيم الإسلام»!![٢٥].

* * *

هكذا فصّلت «مؤسسة راند» ما أجمله «هنتنجتون» و«فوكوياما» . . وغيرهما من دعاة شن الحرب داخل الإسلام . . فى الثقافة الإسلامية . . والكتب المدرسية . . وتأويل الإسلام، ليقبل قيم الحداثة الغربية . . والعلمانية الغربية . . أى ليذوب فى النموذج الحضارى الغربى، مستسلما فى معركة صراع الحضارات! . .

وهكذا نجد أنفسنا بإزاء قضية هى أعقد مما يتصور الكثيرون . . وأمام «نزعة صراعية وصدامية»، تكونت وتراكمت وتكرست على مر تاريخ الاحتكاك الاستعمارى الغربى بالشرق الإسلامى . . لتكون الغلاف الفكرى والثقافى المبرر «للممارسات الصراعية والصدامية» التى تمثلت فى مشروع الهيمنة الغربى ضد الشرق، منذ قبل الإسلام، وعلى امتداد تاريخ الإسلام . .

وليس صحيحًا أننا أمام مجرد «نزوة» فكرية، ابتدعها وطرحها مفكر استراتيچى - هو صامويل . ب . هنتنجتون . . ثم انبرى الكثيرون - فى الشرق والغرب - لنقدها . . والادعاء بأنهم قد طووا صفحتها! . .

إننا - حيال «نزعة صراع الحضارات» - بإزاء أمر لا نؤمن به . . ويرفضه إسلامنا . . وتكرهه أمتنا . . ولكنه - مثل القتال - قد كتب علينا مع كراهتنا إياه . . ونحن نتمنى أن يقلع أهل هذه «النزعة الصراعية» عنها، فلا نلقاهم فى ميادينها وساحاتها . . لكن «الواقع المفروض» شىء . . والتمنيات شىء آخر! . .

* * *

ويزيد من خطورة هذا الأمر وجديته، أن هذه «النزعة الصراعية والصدامية» قد تجلت فى النظريات الأساسية التى ميّزت مشروع النهضة الأوروبية والحداثة الغربية . . وهى نظريات:

١ - **الماكيافيلية**: - نسبة إلى «ماكيافيلى - Machiavell» [١٤٦٩ - ١٥٢٧م] فى السياسة - والتى تعنى أن «القوة» - وليس العدل - هى المقصد من السياسة والدولة . . وهى الروح السارية فى الحضارة الغربية . . وفى علاقات هذه الحضارة بالآخرين . .

٢ - **والهيجلية**: - نسبة إلى «هيجل - Hegel» [١٧٧٠ - ١٨٣١م] - فى فلسفة التاريخ -

والتى تعنى أن كل عصر جديد إنما يقوم على نسخ العصر القديم، وذلك عبر الصراع مع مكوناته، والمحو لها، والحلول محلها. .

٣ـ **والداروينية** ـ نسبة إلى «داروين ـ Darwin» [١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م] ـ فى فلسفة النشوء والارتقاء. . وهى التى قامت على صراع الأحياء، ونسخ ومحو الأقوى للأضعف والضعيف؛ لأن الأقوى ـ بإطلاق ـ هو الأصلح بإطلاق، ومن ثم فهو الأحق بالبقاء! . .

٤ـ **والصراع الطبقى** :ـ سواء فى الماركسية ـ نسبة إلى «ماركس ـ Marx» [١٨١٧ـ ١٨٨٣م] ـ أو فى الليبرالية الرأسمالية ـ والتى تعتمد على «النزعة والفلسفة الصراعية» فى علاقات الطبقات الاجتماعية. . فالطبقة الوليدة والجديدة تصارع الطبقة القديمة، لتقهرها، وتزيحها، وترثها، وتنفرد بكل الثمرات والامتيازات والسلطات ـ البورجوازية فى الليبرالية. . والبروليتاريا عند الماركسيين ـ . .

فهذه النظريات الأساسية التى طبعت النهضة الأوروبية الحديثة بطابعها. . قد غدت مصدر التبرير الفكرى للممارسات الصراعية الغربية ضد الآخرين. . حتى لقد مارس الغرب ـ ولا يزال يمارس ـ هذا الصراع والصدام بضمير بارد، وقلب مستريح راحة الأموات! . . وذلك بحسبان أنه إنما يؤدى «رسالة نبيلة» عندما يدمر الهويات والمواريث الحضارية للآخرين، ليحل محلها هويته وقيمه ونمطه فى العيش والتفكير، باعتبار أن نمطه هذا ـ مثل «الحداثة. . و العلمانية» ـ هو الأقوى، ومن ثم فهو الأصلح والأحداث، والبديل الطبيعى والأحق بأن يحل محل الهويات والمواريث التى امتلكتها الحضارات الأخرى، التى لا يعترف الغرب بمشروعية وجودها، ومن ثم لا يعترف بحقها فى التميز واقتسام العالم الذى يريده الغرب إمبراطورية لاستغلاله الإمبريالى! . .

* * *

- ٦ -

مستجدات.. وتصعيد فى التحديات

وإذا كانت هذه هى حقائق هذه القضية - قضية العلاقة بين الحضارات العالمية . . والنزعة الصراعية التى مارسها الغرب الاستعمارى عبر تاريخه مع الحضارات غير الغربية . . ومع الحضارة الإسلامية على وجه الخصوص - . فإن هناك مستجدات طرأت فى إطار هذه القضية ، يجب على العقل المسلم أن يضعها فى الحسبان . .

* ذلك أن الغرب «الصليبى» طوال عصوره الوسطى كان يواجه الإسلام ، فقط ، بالجيوش وفرسان الإقطاع الأوروبى . . ولم يكن لديه «فكر» يمكن أن يبشر به فى ديار الإسلام ، ويغرى به عقول المسلمين . . حتى لقد وصف الأمير الفارس أسامة بن منقذ [٤٨٨ - ٥٨٤هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨م] - وهو الذى خبر الصليبيين حربا وسلما - . . وصفهم ، فقال : «**إنهم بهائم ، ليست لديهم سوى فضيلة القتال**» ![٢٦] .

ولذلك ، زالت كل آثار الحملات الصليبية القديمة فور هزيمة جيوشها ، وهدم قلاعها ، والاستيلاء على كياناتها الاستيطانية فى بلاد الإسلام [٦٩٠هـ ١٢٩١م] . .

بل إن الصليبيين هم الذين تأثروا حضاريا بحضارة الإسلام . .

* أما الغرب الإمپريالى ، الذى جاءتنا غزوته الحديثة منذ حملة «بونابارت» على مصر والشرق [١٢١٣هـ ١٧٩٨م] فإنه قد جاء إلينا مسلحًا - مع المدفع والبارود وأدوات القتال الحديثة - بفكر عصر النهضة الأوروبية ، ونظرياتها وفلسفاتها الوضعية والعلمانية . .

وحتى لا يكون مصير غزوته الحديثة هذه كمصير غزواته الصليبية القديمة ، عندما تُجْلى وطنيتنا جيوشه ، فنحرر الأرض ، ونستلخص ثرواتنا المنهوبة منه - حتى لا يحدث ذلك المصير لغزوته الحديثة ، فلقد أراد - هذه المرة - احتلال العقل المسلم أيضًا ،

وذلك ليتأيد ويتأبد احتلاله للأرض ونهبه للثروات . . لقد أراد ـ بتغريب عقولنا ـ أن يكون نموذجه «قبلتنا» فيضمن تبعيتنا دون نفقات!

ولقد كانت العلمانية الغربية سلاحه الفكرى الأول الذى أراد به كسر شوكة الإسلام، وتحويله عن منهاجه الشامل للدين والدنيا، والدولة والاجتماع، والقيم والقانون، والفرد والمجموع، والآخرة والأولى . . أراد الغرب ـ بالغزو الفكرى العلمانى ـ تحويل الإسلام إلى صورة من النصرانية، التى تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله . . فلا بأس على الغرب الاستعمارى من وجود «إسلام» يهتم، فقط، بخلاص الروح، ومملكة السماء، والعبادات الفردية، والزهد والرهبنة، ويدع دنيا المسلمين وعالمهم وثرواتهم للقيصر الغربى!!

* لكن الغرب قد أفاق ـ فى العقود الأخيرة من القرن العشرين ـ على حقيقة لا تزال تزعجه وتقض مضاجعه حتى الآن . . حقيقة أن قرنين من جهوده المحمومة فى سبيل علمنة الإسلام وأمته قد ذهبت هباء . . فها هى الصحوة الإسلامية قد أصبحت أعظم ظواهر العصر فى عالم الإسلام، وهى تدعو إلى إقامة الإسلام كمنهاج شامل لكل ميادين الحياة . . وها هى الأحزاب العلمانية ونظريات التغريب ـ التى رعاها الغرب وأنفق عليها بسخاء ـ تفلس وتسقط على امتداد عالم الإسلام . . حتى لقد قالت مجلة [شئون دولية] ـ فى يناير سنة ١٩٩١م ـ عن هذه الحقيقة المدهشة جدا . . والتى أزعجت الغرب:

«إن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى، صالحة على العموم . . فلقد تناقص التأثير السياسى والسيكلوچى للدين عمليّا، فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة . .

لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدّا من هذا! . . فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام . إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى ـ بطريقة ما ـ أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت . . إن الإسلام مقاوم للعلمنة . . والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا فى ظل مختلف النظم السياسية ـ الراديكالية . . والتقليدية . . والنظم التى تقف بين هذين النوعين»!![٢٧].

* ومع إفلاس العلمانية فى عالم الإسلام، وخروج الإسلام من معركته معها أصلب عودًا، وأشد مراسًا، حدث النجاح الكبير والخطير لهذه العلمانية فى المجتمعات الغربية، إلى الحد الذى هزمت فيه المسيحية هناك، وحولتها إلى هامش هزيل، ومجرد تراث..

ففى أوروبا، لا يتجاوز الذين يؤمنون بوجود إله ١٤٪.. ولا يتجاوز الذين يذهبون إلى الكنائس مرة فى الأسبوع ١٠٪.. وفى أمريكا - الأكثر تدينا - لا يتجاوز زوار الكنائس ٤٠٪ من السكان!!.. بل إن الكثيرين من المتدينين هناك قد تخلوا عن أهم ما فى الدين.. تخلوا عن منظومة القيم والأخلاق، فلم يبق منه سوى «العصبية والطقوس».. حتى لقد خانت كنائس غربية كثيرة قيم مسيحيتها، عندما أخذت تجذب الناس بقيم ما بعد الحداثة والسلوكيات المنحلة الماجنة - الحفلات الصاخبة.. والموسيقى الملهية.. وحتى تزويج الشواذ - !!..

لقد هزمت العلمانيةُ المسيحيةَ فى الغرب.. وأصبحت كثيرٌ من المجتمعات الأوروپية «فراغًا دينيّا».. ولأن العلمانية قد عجزت - هى الأخرى - عن ملء الفراغ الذى كانت تملؤه المسيحية، وعن الإجابة عن الأسئلة الطبيعية للإنسان.. فلقد تطلع الإنسان الأوروپى إلى العقائد الروحية التى تلبى احتياجاته، وتملأ له هذا الفراغ.. وكان الإسلام فى مقدمة الديانات التى أخذت تتمدد فى هذا الفراغ الغربى..

وبشهادة القس الألمانى - عالم الاجتماع - «جوتفرايد كونزلن»:

«فلقد مثلت العلمانية: تراجع السلطة المسيحية.. وضياع أهميتها الدينية.. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية.. والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين..

ولقد كان من نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون، والنظام، والسياسة، والتربية، والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليس الحقيقة، هى التى تضع القانون.. وهى التى تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هى العقل والعلم.

لكن.. وبعد تلاشى المسيحية.. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة بنفسها، بل وتُفككُ أنساقَها - العقلية والعلمية - عدميةُ ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهاك الذى أصاب المسيحية أعقبة إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث.. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون (نجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!!

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفى ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة - من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام الذى أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا فى المجتمعات الغربية»[٢٨].

وعندئذ بلغ الانزعاج الغربى من الإسلام ذروة غير مسبوقة فى تاريخ العلاقات الصراعية بين الغرب والإسلام..

لقد سبق للفتوحات الإسلامية - فى القرن الهجرى الأول - أن حررت الشرق من الهيمنة الغربية، فتحول هذا الشرق إلى قلب للعالم الإسلامى، بعد أن كان قلب العالم المسيحى لعدة قرون..

ثم كانت أغلب حروب الغرب ضد الإسلام إنما تقوم وتتم على أرض الشرق الإسلامى، وبعيدًا عن الأرض الغربية.

أما الآن، فإن الإسلام يتمدد فى «معدة» المجتمعات الغربية ذاتها.. وتنفتح أمام هديه الفطرى عقول وقلوب.. الأمر الذى جعل كبار الكرادلة فى الغرب يرون فى ذلك «فتحًا إسلاميًا جديدًا» «لأوروبا» يهدد بتحويلها عن أن تكون قلب العالم المسيحى - كما كانت لعدة قرون - إلى جزء من عالم الإسلام!!

وبشهادة المونسنيور «جوزيبى برناردينى» - فى حضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى - فى سنة ١٩٩٩م:

«فإن العالم الإسلامى قد أخذ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»؟! [٢٩].

* * *

ولهذه الوقائع والحقائق المستجدة، أعلن الغرب - بقيادة اليمين الدينى فى أمريكا - الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام مرة أخرى.. رابطًا بين الإسلام والإرهاب.. وجاعلاً من كل مسلم متهمًا ومشبوهًا.. يُقبض عليه دون سبب معروف!.. ويحاكم ويحكم عليه دون اتهامات معلنة، أو أدلة معروفة!.. ويحرم من الحقوق المدنية، فيصبح حاله فى الغرب أسوأ مما كان عليه حال الزنوج!!.. حتى لقد تحققت عبارات المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» [١٩١٠ - ١٩٩٥م] التى قال فيها:

«إن الإسلام، الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أزيد من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافيًا، وتاريخيًا، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم.. قد ظل، ويظل، حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدى.. والمُبعد الأبدى.. والمتهم الأبدى.. والمشتبه فيه الأبدى»!! [٣٠].

* * *

إذن.. فنحن - بسبب انتصار الإسلام على العلمانية.. وبسبب هزيمة المسيحية الأوروبية أمام العلمانية.. وبسبب تمدد الإسلام فى عقر دار الغرب.. أمام تصعيد - كيفى وكمى - جديد فى الممارسات الصراعية الغربية ضد الإسلام.. وهو تصعيد كانت «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م» فى أمريكا «**مناسبة**» له.. ولم تكن «**السبب**» فيه - كما يحسب الكثيرون!..

* * *

- ٧ -

الإسلام وصراع الحضارات

وإذا كان هذا هو مبلغ تعقد هذه القضية - التى يسطحها الكثيرون - قضية طبيعة العلاقة بين الحضارات الإنسانية . . وهل هى الصراع والصدام؟ . . أم الحوار . . والتعارف . . والتفاعل . . والتعايش؟؟ . . فإن العقل المسلم مطالب ببلورة رؤيته لهذه القضية . . ومطالب بإدارة أوسع الحوارات حولها مع العقول الحضارية المختلفة ، ومع العقل الحضارى الغربى على وجه الخصوص . مستفيدين فى ذلك الحوار من «منطق» هذه الرؤية الإسلامية . . ومن تمثيلها طوق نجاة الإنسانية كلها من هذا المسلسل الصراعى المدمر الذى شقيت وتشقى به الأمم والشعوب فى مختلف الحضارات . . وأيضًا مستفيدين من تحقيق هذه الرؤية الإسلامية «لتوازن المصالح» - وليس «توازن القوى» - لجميع شعوب تلك الحضارات . .

* إن الإسلام - ومعه المسلمون - يرفضون مبدأ صراع الحضارات وصدامها . . يرفضون ذلك من حيث «المبدأ» وليس ، فقط ، للمضار والكوارث التى جرتها عليهم هذه «النزعة الصراعية» عبر تاريخهم الطويل مع الغرب الاستعمارى . .

صحيح أن الكوارث والحروب والقهر الاستعمارى والنهب الاقتصادى الذى عانى منه المسلمون - ولا يزالون - بسبب سيادة هذه النزعة الصراعية فى علاقة الحضارة الغربية بالإسلام وأمته وعالمه وحضارته ، كافية وحدها فى جعل المسلمين - من باب المصلحة والمنفعة - يرفضون ويعادون هذا المنهج فى العلاقات بين الحضارات . .

لكن الموقف الإسلامى - المبدئى . . والعقدى . . والفلسفى - هو الآخر ، رافض ومعاد لمبدأ الصراع - بتعميم وإطلاق - سواء أكان هذا الصراع حضاريًا أم دينيًا أم فكريًا أم عرقيًا أم طبقيًا - . .

وإذا كانت القضية الأولى التى تمايز بين العقائد والفلسفات و«الأيديولوچيات»، هى «**رؤية الإنسان للكون والوجود**»، التى تعتمدها هذه العقائد والفلسفات و«الأيديولوچيات»، فإن الرؤية الإسلامية للكون والوجود تقود المسلم إلى رفض مبدأ الصراع وفلسفة الصدام، رفضًا «مبدئيًا» . . وبتعميم وإطلاق . .

ذلك أن هذه الرؤية الإسلامية ترى: أن الواحدية والأحدية هى، فقط، للذات الإلهية . . أما كل من عدا الذات الإلهية، وجميع ما سواها فإنه يقوم على التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف . .

والإيمان بهذا التنوع والتمايز والاختلاف - فى هذه الرؤية الإسلامية - يتجاوز كونه «حقّا» من حقوق هذه المخلوقات إلى كونه «قانونًا كونيًا وتكوينيًا» و«سنة من سنن الله» التى لا تبديل لها ولا تحويل . .

ولأن «الصراع» يعنى: الانتهاء إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيلغية ويهلكة، ليستأثر بما كان لدى هذا الآخر، ولينفرد بالميدان، ويستغنى عن الآخرين . . كان هذا «المبدأ» . . وبتعميم وإطلاق - لأنه مناقض ومناهض لسيادة السنة الإلهية فى تنوع سائر المخلوقات والحضارات والشرائع والفلسفات والمذاهب والقوميات . .

ولقد استخدم القرآن الكريم مصطلح «الصراع» - بهذا المعنى . . معنى: الهلاك والإهلاك - فى سياق الحديث عن قوم ثمود وقوم عاد: ﴿**فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ**﴾ [الحاقة: ٥ - ٨].

فدل هذا المصطلح - فى القرآن الكريم - على إفضاء «الصراع» إلى نهاية الخصم وهلاكه وزواله من الوجود . . إلى التفرد والانفراد والاستغناء - وفق المصطلح القرآنى - المقدمة المفضية إلى الطغيان: ﴿**كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾

[العلق: ٦ - ٧].

وفى كل ذلك مصادمة ومخالفة ومحادة لسنة الله - سبحانه وتعالى - فى التنوع والتمايز بسائر عوالم الخلق وميادينها . .

إن الوجود - بأسره - فيه : «الحق» - واجب الوجود - و«الخلق» - ممكن الوجود - . . ووحدة «الحق» - سبحانه وتعالى - وأحديته - فى الرؤية الإسلامية - تبلغ الذروة والمنتهى فى تصورات العقل الإنسانى للتنزيه والتجريد : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص : ١ - ٤].

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . . وكل ما خطر على بالك، فالله ليس كذلك ! . .

أما سائر عوالم الخلق - فى الإنسان . . والحيوان . . والنبات . . والجماد - وكذلك فى العقائد والشرائع والفلسفات . . وفى الألوان والأجناس . . والألسنة واللغات والقوميات . . وفى المناهج والثقافات والمذاهب والحضارات . . وفى الأمم والقبائل والشعوب . . إلخ . . إلخ . . فجميعها قائمة على قانون التنوع وسنة التمايز والاختلاف . .

- ففى الإنسانية الواحدة تنوع واختلاف : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات : ١٣].

- وفى الديانات تنوع واختلاف : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩].

- وفى الشرائع والمناهج - أى الثقافات والمذاهب والحضارات - تنوع واختلاف : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة : ٤٨].

وكذلك الحال - حال التنوع والتمايز والاختلاف - فى الألوان والأجناس والألسنة واللغات - أى القوميات : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢]. ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل : ٣، ٤].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وإذا كان «الصراع» يفضى إلى الانفراد بالساحة . . فإن التعدد والتمايز والاختلاف هو الباعث على التنافس بين المختلفين، وعلى التسابق على طريق الخيرات: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وانطلاقًا من هذا التأسيس القرآنى لقانون التنوع والتمايز وسنة التعدد والاختلاف، قال العلماء - فى تفسيرهم لهذه الآيات القرآنية -: إن الاختلاف طبيعة المخلوقات. . وأنه علة خلق هذه المخلوقات! فالحسن البصرى [٢١-١١٠هـ ٦٤٢، ٧٢٨م]، ومقاتل بن سليمان [١٥٠هـ ٧٦٧م]، وعطاء بن رباح [٢٧، ١١٤هـ ٦٤٧-٧٣٢م] يقولون إن الإشارة - فى قوله تعالى ﴿ولذلك خلقهم﴾ هى إلى الاختلاف. . أى «وللاختلاف خلقهم». .

وحتى الذين يقولون: إن الإشارة إلى الرحمة - مثل ابن عباس [٣ق هـ-٦٨هـ ٦١٩-٦٨٧م]، ومجاهد [٢١، ١٠٤ هـ ٦٤٢-٧٢٢م]، وقتادة بن دعامة السدوسى [٦١-١١٨هـ ٦٧٩-٧٣٦م]، والضحاك [١٠٥ هـ٧٢٣م][٣١]. فإن الجمع بين رأيهم هذا والرأى الأول ليس ببعيد. . فالتنوع والاختلاف - فى إطار الوحدة الإنسانية - هو رحمة من الخالق - سبحانه وتعالى - لأنه الباعث على التسابق على طريق الخيرات. . ومعروف الفارق الجوهرى - فى العربية والإسلام - بين «الخلاف» - المذموم، لأنه فى الأصول - وبين «الاختلاف» المحمود - لأنه فى الفقهيات والفروع - . .

ومن العلماء الأئمة الذين أكدوا على هذه الحقيقة: حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠-٥٠٥هـ ١٠٥٨-١١١١م]. . وأبو حيان التوحيدى [٤٠٠هـ ١٠١٠م]، والطباطبائى - محمد حسين، [١٢٩٣هـ ١٨٧٦م]، والشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢-١٣٥٤هـ ١٨٦٥-١٩٣٥م]. .

فالغزالى يتحدث عن سنة الاختلاف بين الناس، فيقول: «**وكيف يجتمعون على الإصغاء - [الرأى الواحد] - وقد حُكم عليهم فى الأزل بأنهم لا يزالون مختلفين. . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**»[٣٢].

والتوحيدى، هو القائل فى جدلية الاختلاف بإطار الوحدة: **«. . فالناس - فى أصل جبلتهم، وبدء خلقتهم - قد افترقوا مجتمعين. واجتمعوا مفترقين، واختلفوا مؤتلفين، وائتلفوا مختلفين**[٣٣] **. . . وليس يجوز أن يكون الناس مختلفين فى ظاهرهم. . ولا يختلفون فى باطنهم. . وليس يجوز فى الحكمة أن يكثروا ولا يختلفوا، وليس يجوز أيضًا أن يُضم الجنس والنوع ولا يأتلفوا. . »**[٣٤].

وعندما الطباطبائى - محمد حسين - **«فإن اختلاف الطبائع المنتهية إلى اختلاف البنى أمر لا مناص منه فى العالم الإنسانى. . ذلك أن التركيبات البدنية مختلفة فى الأفراد، مما يؤدى إلى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية. وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف إلى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية فى المجتمعات الإنسانية التى لولاها لم يعش المجتمع الإنسانى»**[٣٥].

أما الشيخ رشيد رضا. . فإنه هو القائل: **«والذى دل عليه الكلام من مشيئته تعالى فى الناس خلقهم مستعدين للاختلاف والتفرق فى علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم، وما يتبع ذلك من إرادتهم واختيارهم فى أعمالهم، ومن ذلك: الدين والإيمان والطاعة والعصيان. . فالاختلاف طبيعى فى البشر وفيه من الفوائد والمنافع العلمية - والعملية - ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه. . وقد شرع الله لهم الدين لتكميل فطرتهم، والحكم بينهم فيما اختلفوا فيه بكتاب الله الذى لا مجال فيه للاختلاف. . »**[٣٦].

* كذلك، جعلت الرؤية الإسلامية - وأوجبت - أن تكون العلاقة بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين هى «التوازن» أى العدل - الذى هو الوسط. . والخيار - الذى أراده الله - سبحانه وتعالى - لأمة الإسلام - «جعلاً إلهيًا» -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[البقرة: ١٤٣]. .

وهذا التوازن - الوسط. . العدل - فى العلاقات بين الحضارات - وفى العلاقات الدولية - هو «توازن المصالح» وليس «توازن القوى» - بين الحضارات والأمم والشعوب. .

* * *

* لكن . . ماذا إذا اختل التوازن بين الأمم والشعوب والحضارات ـ أو الطبقات ـ هل يكون «الصراع» هو السبيل لعلاج هذه الأمراض؟ . .

كلا؛ لأن سلوك سبيل «الصراع» ـ الذى ينهى التنوع والتعدد ـ ليس العلاج لهذه الأمراض . . لأنه أشبه ما يكون بإعدام المرضى . . وخاصة الضعفاء، الذين يهلكهم هذا الصراع . .

لذلك، فإن الإسلام يقدم «فلسفة وآلية» «التدافع» سبيلاً لإصلاح الخلل، ورفع الظلم، وإعادة العلاقات بين المختلفين والمتمايزين إلى مستوى «العدل المتوازن» و«التوازن العادل» . . فالدفع والتدافع، هو: «حراك» اجتماعى وفكرى وحضارى . . وهو وسط بين «الصراع» ـ الذى ينهى التعددية ـ وبين «السكون» ـ الذى يكرّس المظالم والاختلالات ـ . . حراك اجتماعى يعدّل الموقف، مع الحفاظ على بقاء سنة التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف بين الفرقاء . .

إنه السبيل لتصحيح الخلل والمظالم فى علاقات الطبقات . . والحضارات . . وهو الحراك الفكرى الذى تمثله الاجتهادات فى عوالم الأفكار . . به تعود العلاقات بين الفرقاء المختلفين ـ إذا اختلت ـ إلى مستوى التوازن والعدل . . وبه تكون حوافز المنافسة وبواعث التسابق على طريق الخيرات . . وهذا هو معنى قول الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ـ ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ـ١٩٦٦م]:

«إن من طبيعة الناس أن يختلفوا؛ لأن هذا الاختلاف أصل من أصول خلقتهم، يحقق حكمة عليا من استخلاف هذا الكائن فى الأرض، والاختلاف فى الاستعدادات والوظائف ينشئ بدوره اختلافًا فى التصورات والاهتمامات والمناهج والطرائق . . ولقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أن طبيعة الناس التى فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبدا يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفى النهاية يكون الصلاح والخير والنماء. فالعقيدة فى حاجة إلى الدفع عنها، وأماكن العبادة لا يحميها إلا دفع الله الناس بعضهم ببعض . . وهى قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان».

ثم يشير سيد قطب إلى أن هذا التدافع وهذا التنوع والاختلاف إنما يتم فى إطار

جامع لفرقائه . . فهو ليس «الصراع» الذى لا ضابط له، ولا سقف يحكمه، والذى يفضى إلى إنهاء التنوع والاختلاف . . فيقول:

«على أنه لا بد أن يكون هناك ميزان ثابت يفىء إليه المختلفون، وقول فصل ينتهى عنده الجدل، ومشروع واحد لبنى الإنسان، ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال . . »(٣٧) .

* * *

ولم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية ـ على اختلاف مذاهبهم . . وتوالى أجيالهم ـ على هذه الفلسفة :

* **التنوع** والتمايز والتعدد والاختلاف فى كل عوالم المخلوقات، كسنة من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل . . وليس التمركز حول الذات، مع الإنكار للآخرين، ولمشروعية اختلافهم وتميزهم . .

***والتدافع**، كطريق وسط للحراك الاجتماعى والفكرى، يعدل المواقف إذا اختلت علاقات العدل والتوازن بين الفرقاء المختلفين، لإعادة هذه العلاقات إلى مستوى العدل المتوازن والتوازن العادل . . وليس الصراع، الذى يصرع فيه ـ وبه ـ القوى الضعفاء، فينهى التنوع والتعدد والاختلاف . .

لم يكن هذا الاجتماع لعلماء الأمة الإسلامية على هذه الفلسفة، المؤسسة على رؤية المسلم للكون والوجود، مجرد «فكر إسلامى» حتى يكون من مناطق «الاجتهادات . . والمتغيرات»، وإنما هو «دين ثابت»، ومنهاج بلوره الوحى الإلهى فى القرآن الكريم، باعتباره سنة من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الاجتماع الإنسانى، حاكمة للعلاقات بين الأفكار والشرائع والملل والأقوام والحضارات . .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ عندما يخاطب رسوله ﷺ فيقول له : **﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾**[فصلت: ٣٤، ٣٥] . . يعلمنا ـ سبحانه ـ معالم هذا المنهاج . . فالتدافع لا يتغيا «صرع الآخر وإلغاءه» وإنما تحويل موقفه وموقعه من «العدواة» ـ التى تجعله من أهل «السيئات» ـ إلى موقع وموقف «الولى الحميم» ـ الذى

يجعله من أهل «الحسنات» ـ! . . فيتم «الحراك»، بواسطة «التدافع»، مع بقاء «تعددية الفرقاء المتمايزين» . .

بل لقد حدثنا القرآن الكريم عن هذه «السبيل الإسلامية» ـ سبيل «التدافع»، لا «الصراع» ـ باعتبارها الحافز الذى يدفع الحياة والعمران إلى الارتقاء دائمًا وأبدًا . فقال: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالصراع الحضارى . . ونقيضه ـ السكون الحضارى ـ ليس سبيل التقدم والصلاح الإصلاح، وإنما سبيل التقدم هو وسطية التدافع والتنافس والتسابق على طريق التقدم والنهوض والخيرات . .

وعندما أذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسوله ﷺ وللمؤمنين بالقتال ـ قتال الذين أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم وفتنوهم فى الدين ـ جاء الحديث عن «التدافع»، لتكون غايات القتال ـ الذى فُرض على المسلمين وهو كُره لهم ـ هى تعديل مواقف المشركين من مواقع العداء المشرك المعتدى إلى مواقف السلام . . فهى «حراك»، لا «نفى وإهلاك»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج ٣٨ـ ٤١].

ففلسفة «التدافع الحضارى» هى البديل الإسلامى «لفلسفة الصراع الحضارى» الغربية . . ولذلك، ازدهرت فى دولة الإسلام وحضارته وأمته التعددية فى الملل والنحل والشرائع واللغات والقوميات والعادات والأعراف . . فعاشت الديانات ـ الكتابية والوضعية ـ ومؤسساتها ومقدساتها، فى ظلال حضارة الإسلام . .

كما قنن الفقه الإسلامى، منذ صدر التاريخ الإسلامى للعلاقات الدولية . . قنن لاحترام العهود والمواثيق . . ولمعاملة الأسرى . . ولاحترام المقدسات . . بل وللرفق

بالنبات والطبيعة أثناء القتال! . . وعلمنا ـ فى النظر إلى «الآخرين» . . وفى التعامل معهم ـ «منهاج : ليسو سواء»! . .

كل ذلك انطلاقًا من البلاغ القرآنى . . ومن البيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى . .

على حين شقيت الحضارات ـ وخاصة حضارة الإسلام ـ من «الممارسات الظالمة» للنزعة الصراعية فى الحضارة الغربية . . ومن الفكر العنصرى، المتمركز حول الذات، والمنكر لحق الآخرين فى الوجود المتميز . . ذلك الذى برر الغرب الاستعمارى به تلك «الممارسات الظالمة»، عبر تاريخ غزواته للشرق . . وحتى هذه اللحظات . .

إننا ـ فى هذه القضية ـ أمام «واقع غربى»، مارس ويمارس ضدنا صراع الحضارات . . ولسنا أمام «نزوة» اخترعها مفكر ـ هو صامويل . ب . هنتنجتون . . الذى «كشف» عن «واقع» الموقف الغربى من صراع الحضارات . .

ولذلك، فإن «ترتيب البيت العربى والإسلامى»، لتعظيم إمكاناتنا المادية والبشرية . . و «ترتيب العقل العربى والإسلامى»، ليبلور فلسفة الإسلام إزاء هذه القضية . . وإدارة الحوارات الموضوعية والصبورة، مع الإنسان الغربى . . ومع حضارات الشرق والجنوب . . هى السبيل لرفع هذا «البلاء» الذى مارسه الغرب الاستعمارى ـ ولا يزال يمارسه ـ انطلاقًا من هذه النزعة الشريرة : «صراع الحضارات»!

والله أعلم . .

* * *

الهوامش:

(١) انظر كتابنا: [الإسلام فى عيون غربية: بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء] طبعة القاهرة - دار الشروق سنة ٢٠٠٤م.

(٢)هوبرت هيركومر، وجيرنوت روتر: [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ص ٢٥، ٢٦. ترجمة: ثابت عيد. تقديم: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة - دار نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م

(٣) المرجع السابق. ص ٢٣، ٢٤.

(٤) المرجع السابق. ص ٣٢، ٣٣.

(٥) المرجع السابق. ص٢١.

(٦) مكسيم رودنسون: [الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «شاخت» و«بوزورث» - القسم الأول. ص ٢٧، ٢٨، ٣٤، ٣٥. ترجمة: د. محمد زهير السمهورى. تعليق وتحقيق: د شاكر مصطفى. مراجعة: د. فؤاد ذكريا - طبعة الكويت سنة ١٩٧٨م.

(٧) سيجريد هونكة: [الله ليس كذلك] ص ٨، ١٢، ١٣، ١٤، ١٩، ٢٣. ترجمة: غريب محمد غريب - طبعة القاهرة - دار الشروق - ١٩٩٥. و[العقيدة والمعرفة] ص ١٦١، ١٦٢، ٩٩ ترجمة: عمر. لطفى العالم. طبعة دمشق - دار قتيبة - سنة ١٩٨٧م.

(٨) المرجع السابق. ص ٤٤.

(٩)مكسيم رودنسون: [الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] - مصدر سابق. ص ٨٣، ٨٦.

(١٠) منتجمرى وات: [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص٩٨. ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ. طبعة القاهرة - مكتبة الأسرة - الهيئة العامة للكتاب.

(١١) مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول. ص ١٣، ١٤ ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.

(١٢)أحمد عبد المعطى حجازى: صحيفة [الأهرام] - القاهرة - فى ٢٨-٤-٢٠٠٤م.

(١٣) د. حاتم الطحاوى: [وثيقة نادرة: بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العربى] - الكويت عدد ٥٣٢ - مارس سنة ٢٠٠٣م.

(١٤) باركر: [الحروب الصليبية] - بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف أرنولد - ص٧٩ - ترجمة: جرجيس فتح الله - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

(١٥) [التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى] - أبحاث ومناقشات مؤتمر كولورادو. ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٧٠، ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧. طبعة مالطا سنة ١٩٩١م.

(١٦) من حديثه إلى صحيفة «الفيجارو» - الفرنسية - والنقل عن صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - فى ١-١٠-١٩٩٩م.

(١٧) صحيفة [العالم الإسلامى] - مكة - فى ٦-١٠-٢٠٠٠م.

(١٨) نيكسون: [الفرصة السانحة] ص ٢٨، ١٤٠، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١. ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة - دار الهلال - سنة ١٩٩٢م.

(١٩) مجلة [شئون دولية] - كمبردج - انجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١م. وانظر كتابنا [الغارة الجديدة على الإسلام] ص ١٥-٣١ - طبعة القاهرة - دار الرشاد - سنة ١٩٩٨م.

(٢٠) لقد اعتمدنا فى أفكار «هنتنجتون» على دراسته التى نشرت سنة ١٩٩٣م بعنوان «صدام الحضارات - The Clash Of Civilization» - مجلة الشئون الدولية - الأمريكية - ترجمة: عبد المنعم محفوظ - مجلة [الحرس الوطنى] - السعودية - الرياض - عدد ذى القعدة/ ذى الحجة سنة ١٤١٦هـ - مارس - أبريل سنة ١٩٩٦م.

(٢١) فوكوياما: مجلة [النيوزويك] - الأمريكية - العدد السنوى: ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٢٢) سيد قطب: مجلة [الرسالة] - القاهرة - السنة العشرون - المجلد الأول - عدد ٩٩١ ص ٧١٣-٧١٥.

(٢٣) عدد [النيوزويك] السنوى - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.

(٢٤) المرجع السابق نفس العدد.

(٢٥) مؤسسة راند: [خطة أمريكية لتحديث الدين الإسلامى] ص١٣-٢٠، ٢٤، ٧١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٩٣، ٩٤، - ترجمة: د. محمد يحيى. طبعة القاهرة - المكتب المصرى الحديث - ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٤م.

(٢٦) أسامة بن منقذ: [كتاب الاعتبار] ص١٣٢. تحقيق: د. فيليب حتى. طبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة - سنة ١٩٣٠م.

(٢٧) د. محمد عمارة: [الإسلام والآخر. من يعترف بمن ومن ينكر من؟] ص ١٤٠، ١٤١ - طبعة القاهرة - مكتبة الشروق الدولية - سنة ١٤٢١هـ سنة ٢٠٠١م.

(٢٨) جوتفرايد كونزلن: [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص ٢٢-٣٦- تقديم: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة - دار نهضة مصر - سنة ١٩٩٩م.

(٢٩) صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - فى ١٣-١٠-١٩٩٩م.

(٣٠) من حديث لجاك بيرك فى ٢٧-٦-١٩٩٥م - انظر صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن - فى ١-١١-٢٠٠٠م.

(٣١) القرطبى: [الجامع لأحكام القران] ج٩ ص ١١٤، ١١٥ طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٣٢) الغزالى - أبو حامد: [القسطاس المستقيم] ص ٦١ - ضمن مجموعة عنوانها: [القصور العوالى فى رسائل الإمام الغزالى]طبعة مكتبة الجندى - القاهرة - بدون تاريخ.

(٣٣) التوحيدى - أبو حيان: [المقابسات] ص ٨٣. تحقيق: محمد توفيق حسين. طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م.

(٣٤) التوحيدى - أبو حيان: [الإمتاع والمؤانسة] ج٣ ص٩٩. تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين - طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤م.

(٣٥) الطباطبائى - محمد حسين: [الميزان فى تفسير القرآن]ج١١ ص٦٠ طبعة بيروت سنة ١٣٩٢هـ سنة ١٩٧٢م.

(٣٦) رشيد رضا: [تفسير المنار] ج١٢ ص١٩، ٢٢ طبعة بيروت - دار المعرفة.

(٣٧) سيد قطب: [فى ظلال القرآن] ج١ ص٢١٥، ١٧١، ج٤ ص ٢٤٢٥ طبعة بيروت سنة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

***

المصادر والمراجع

أحمد عبد المعطى حجازى : [الأهرام] - فى ٢٨- ٤ - ٢٠٠٤م .

أسامة بن منقذ : [كتاب الاعتبار] تحقيق : د. فيليب حتى . طبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة الأمريكية - سنة ١٩٣٠م .

باركر (سير إرنست) : [الحروب الصليبية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] - بإشراف «أرنولد» - ترجمة : جرجيس فتح الله . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

التوحيدى - أبو حيان - : [المقابسات] تحقيق : محمد توفيق حسين . طبعة بيروت سنة ١٩٨٩م .

: [الامتاع والمؤانسة] تحقيق : أحمد أمين ، أحمد الزين . طبعة القاهرة سنة ١٩٤٤م .

جوتفرايد كونزلن : [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] تقديم : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م .

د. حاتم الطحاوى : [وثيقة نادرة : بعد غرناطة جاء دور القدس] - مجلة [العربى] - الكويت - مارس ٢٠٠٣م .

رشيد رضا : [تفسير المنار] طبعة دار المعرفة - بيروت .

سيجريد هونكه : [الله ليس كذلك] ترجمة : د. غريب محمد غريب . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م .

: [العقيدة والمعرفة] ترجمة : عمر لطفى العالم . طبعة دمشق سنة ١٩٨٧ .

سيد قطب : [فى ظلال القرآن] طبعة بيروت سنة ١٤٠٧هـ سنة ١٩٨٧م .

: مجلة [الرسالة] - السنة العشرون - المجلد الأول - عدد ٩٩١ .

الطباطبائى - محمد حسين : [الميزان فى نفسير القرآن] طبعة بيروت سنة ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م .

الغزالى - أبو حامد : [القسطاس المستقيم] - ضمن مجموعة [القصور العوالى فى رسائل الإمام الغزالى] طبعة مكتبة الجندى - القاهرة .

فوكويوما : [مجلة النيوزويك] ـ الأمريكية ـ العدد السنوى ـ ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م .

القرطبى : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة .

مؤتمر كولورادو : [التنصير خطة لغزو العالم الإسلامى] ـ وثائق ومناقشات ـ طبعة مالطا سنة ١٩٩١م .

د . محمد عمارة : [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة ١٩٩٨م .

: [الإسلام الآخر من يعترف بمن ومن ينكر من؟] طبعة القاهرة ٢٠٠١م .

: [الإسلام فى عيون غربية . . بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء]طبعة القاهرة ٢٠٠٤م .

د . محمد يحيى ـ مترجم ـ : [خطة أمريكية لتحديث الإسلام] ـ تقرير مؤسسة «راند» الأمريكية . طبعة القاهرة سنة ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٤م .

مكسيم رودنسون : [الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف«شاخت»و«بوزورث» . ترجمة : د . محمد زهير السمهورى . تحقيق وتعليق : د . شاكر مصطفى . راجعة د . فؤاد ذكريا . طبعة الكويت سنة ١٩٧٨م .

مكسيموس مونروند : [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق . المدعوة حرب الصليبية] ترجمة : مكسيموس مظلوم طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م .

مونتجمرى وات : [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ترجمة : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ . طبعة القاهرة مكتبة الأسرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

نيكسون ـ ريتشارد ـ : [الفرصة السانحة]ترجمة : أحمد صدقى مراد . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م .

هنتنجتون ـ صامويل . ب . : [صدام الحضارات] ترجمة : عبد المنعم محفوظ ـ مجلة [الحرس الوطنى] ـ الرياض ـ مارس ـ أبريل ١٩٩٦م .

: مجلة [النيوزويك] ـ الأمريكية ـ العدد السنوى ديسمبر سنة ٢٠٠١م ـ فبراير سنة ٢٠٠٢م .

هوبرت هيركومر : [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ترجمة : ثابت عيد . تقديم : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م .

دوريات

[الأهرام]ـ القاهرة . .

[الحرس الوطنى]ـ الرياض . .

[الرسالة]ـ القاهرة . .

[شئون دولية]ـ لندن . .

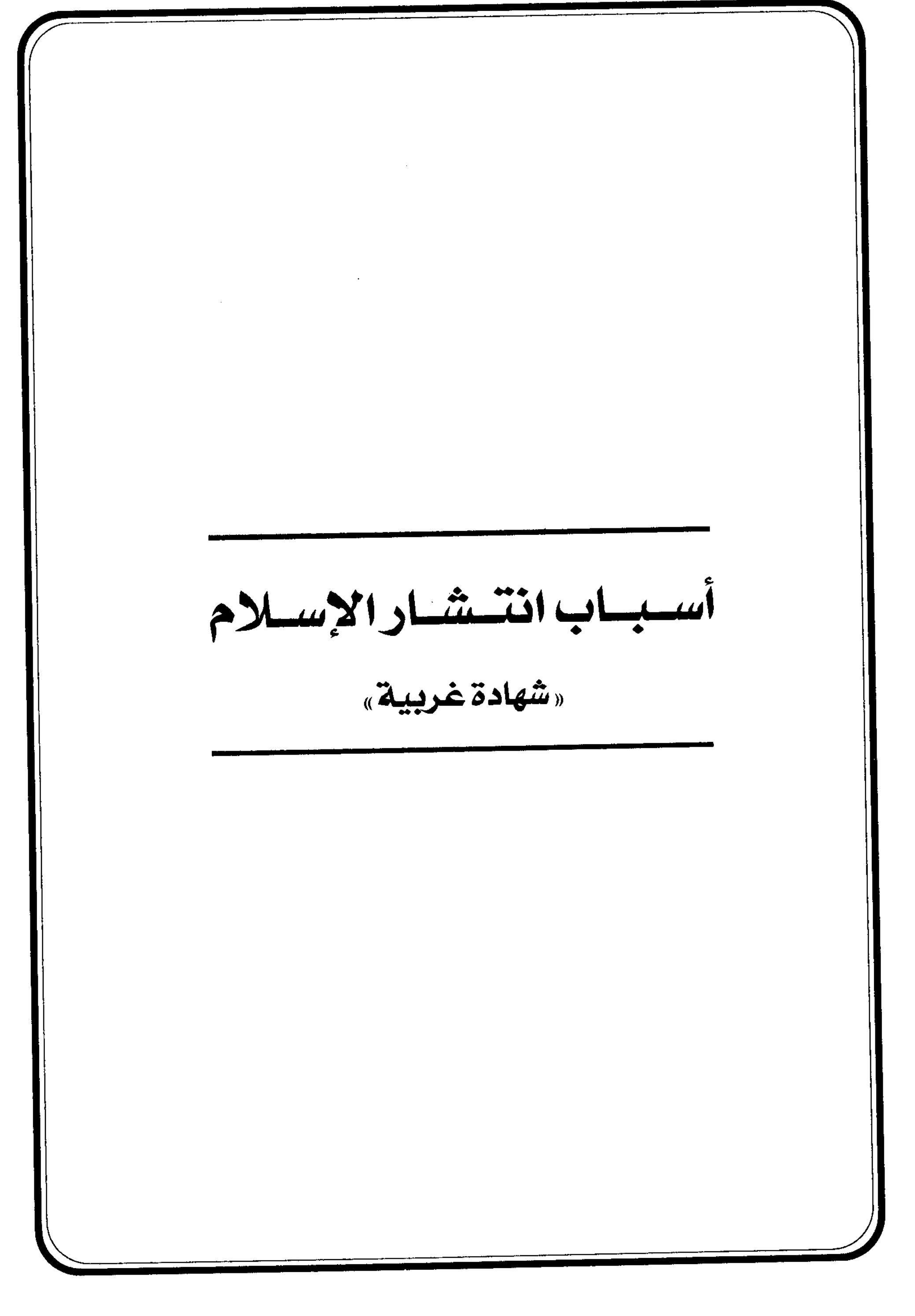
[الشرق الأوسط]ـ لندن . .

[العالم الإسلامى]ـ مكة المكرمة . .

[العربى] ـ الكويت . .

[النيوزويك] ـ أمريكا . .

* * *



أسباب انتشار الإسلام

«شهادة غربية»

تقديم

لقد صدق الله العظيم، عندما قال فى قرآنه الكريم: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً..﴾ [آل عمران: ١١٣] - ليعلّم الناس العدالة التى تكتشف الفروق والتمايزات فى مواقف الآخرين، والتى لا تعمم الأحكام فتظلم المنصفين والمجتهدين، عندما تضعهم فى سلة واحدة مع المغرضين والمزيفين.

فالغرب ليس كتلة واحدة صماء.. وهو لا يمكن اختزاله فى «مشروع الهيمنة الإمپريالية»، والاحتلال والاستغلال، الذى ناصب الإسلام العداء منذ ظهور الإسلام، ولا يزال يناصبه العداء حتى هذه اللحظات.. والذى حاول ويحاول، طوال ذلك التاريخ، إعادة اختطاف الشرق من الإسلام وأمته وحضارته.

ورغم أن صناعة القرارات، والممارسات التى عانى منها الشرق الإسلامى، ولا يزال يعانى منها حتى الآن، هى بيد قوى الهيمنة الغربية، وتوجهاتها الفكرية والدينية، وبيد المؤسسات السياسية والاقتصادية والإعلامية والكنسية المعبرة عن هذه القوى والتوجهات. تلك التى تمسخ وتشوه صورة الشرق الإسلامى فى عقول ووجدانات جماهير الشعوب الغربية ذاتها، لتبرر مشاريع الهيمنة الإمپريالية على الشرق فى أوساط هذه الجماهير، وصولاً إلى كسب تأييد هذه الجماهير لمقاصد الإمپريالية الغربية فى إعادة اختطاف الشرق، وحرمان أهله من حقهم الفطرى فى الحرية والاستقلال وتقرير المصير.

رغم هذه الحقيقة - التى قامت عليها الشواهد الكثيرة - إلا أن العدالة والإنصاف يدعواننا إلى إبراز الوجه المشرق للغرب الحضارى.. والذى تمثل فى العلماء الغربيين، الذين عبروا عن حقيقة الإنسان الغربى، وموضوعية العلم الغربى، وأثمن ما فى الثقافة الغربية، عندما درسوا الإسلام وحضارته دراسة العلماء المجتهدين، فأنصفوه،

وشهدوا له شهادات صدق، نتعلم منها نحن المسلمين.. ونقدمها للإنسان الغربى - الذى ضلله الإعلام الغوغائى، عندما شحن عقله ووجدانه «بثقافة الكراهية السوداء» للإسلام والمسلمين، قائلين لهذا الإنسان الغربى: **إننا ندعوك إلى كلمة سواء.. إلى أن تقرأ شهادات هؤلاء العلماء الغربيين العدول، العلمية والموضوعية التى أنصفت الإسلام وأمته وحضارته.**

وإذا كان استقصاء هذه الشهادات الغربية يحتاج إلى العديد من المجلدات، فإننا نقف - فى هذا المقام - عند شهادات نفر متميز من العلماء الغربيين، الذين يمثلون عمداً من أعمدة الثقافة الغربية، وحججًا فى دراسة الحضارة الغربية والإسلامية جميعا.. والذين كتبوا فى الإسلام دراسات يتعلم منها علماء الإسلام أنفسهم.. وهى دراسات حريّ أن يتعلم منها الغربيون قبل المسلمين.

د.محمد عمارة

***

شهادة العلامة: سير توماس أرنولد

يجئ فى مقدمة العلماء الغربيين، العالم الإنجليزى «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] Arnoled, Sir Thomas صاحب الكتاب الفريد الذى درس مسيرة وسيرة انتشار الإسلام فى العالم، عبر التاريخ.. كتاب [الدعوة إلى الإسلام].

وعن هذا العالم الحجة، يقول المستشرق الإنجليزى البرفيسور «ألفريد يدجيوم - Alfred Guillaume» - رئيس دائرة الشرق الأدنى والأوسط لمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية لجامعة لندن - :

«إنه من أعاظم المستشرقين البريطانيين، تعلم فى كمبردج، وقضى عدة سنوات - ١٨٨٨ - ١٨٩٨م - فى الهند أستاذًا للفلسفة فى كلية عليكرة الإسلامية، وأستاذا للفلسفة فى لاهور - ١٩٩٨ - ١٩٩٤م - ومساعدًا لأمين مكتبة ديوان الهند - ١٩٠٤ - ١٩٠٩م. وهو أول من جلس على منبر الأستاذية فى قسم الدراسات العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن سنة ١٩٠٤م، ثم اختير عميدًا لها. ولقد ذاع صيته بكتابيه «الدعوة إلى الإسلام» - لندن سنة ١٨٩٦م - و«الخلافة - Caliphate» أكسفورد سنة ١٩٢٤م. كما كتب دراسته الإجمالية عند الإسلام بعنوان «العقيدة الإسلامية - The Islam-ic Faith» وكتابه الفخم عن «التصوير فى الإسلام - painting in Is-lam». وهو صاحب فكرة كتاب «تراث الإسلام» والمشرف على تنسيقه وإخراجه. ولقد كان ملمًا باللغتين العربية والفارسية إلى جانب إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية. مالكًا لمفاتيح عالم العصور الوسطى وعالم العصر الحديث.

ولقد خلت كتاباته من أية أغلاط، أو حتى هفوات لاحظها عليها المتخصصون من الغربيين أو المسلمين»[١].

وإذا كانت هذه هى مكانة «الشاهد» - سير. توماس أرنولد - فيكفى فى الإشارة إلى مكانة شهادته - كتابه «الدعوة إلى الإسلام» - الذى نقدم منه شهادته للإسلام - أن يقول فيه المستشرق الإنجليزى «ر.ا. نيكلسون» [١٨٦٨ - ١٩٤٥م] R.A. Nicholson:

«إنه كتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية..وهو مؤلف لا يمكن الاستغناء عنه، ويعد حجة ثابتة.. وهو من أوله إلى آخره، برغم طابعه التاريخى ومنهجه العلمى، إنما هو حجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب. وإن آراءه فى الجملة خليقة بأن تؤثر حتى فى هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر، عندما يقدرون بواعث الحماسة فى نشر الدعوة الإسلامية ونتائجها، تاركين بصفة قاطعة مظهراً من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابًا، كما فعل أرنولد.. إنه ليستولى علينا الدهش كيف استطاع أرنولد أن يجمع وينقد هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التى تتعلق بالكتب والمراجع التى استخدمها فى الطبعة الأولى من كتاب «الدعوة إلى الإسلام»، وإن نظرة واحدة فى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف، تكفى لتتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعًا وصورة للحقائق التى تتعلق بموضوعه.. إنه كتاب زاخر بالحياة..وبينما نجده ينقلنا على التوالى من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وإسبانيا وفارس والهند والصين والملايو، فإننا نحس من وراء سطحه الهادئ عمق الحجج المقنعة وقوتها، تلك الحجج التى تبعث فيه الحياة..»[٢].

وبعد هذه الإشارات إلى مكانة «الشاهد» ومكانة «الشهادة». نقدم شهادة «سير. توماس أرنولد» على زيف دعاوى انتشار الإسلام بالسيف والعنف والحرب والإكراه - تلك الدعاوى التى روج لها، ولا يزال، مشروع الهيمنة الغربية. فيعلن، بالحقائق الموضوعية، أن انتشار الإسلام إنما حدث، بهذه الصورة المدهشة فى سرعتها وقوتها، لسببين أساسيين:

أولهما: الضعف الذاتى والمزمن الذى أصاب النصرانية، والإفلاس الذى أصاب كنائسها المتناحرة، كأثر من آثار جناية الثقافة الهلينية الغربية على النصرانية الشرقية، وما أثمرته من الانقسامات الحادة والتناقضات العدائية فى صفوف المؤسسات الكنسية إبان مراحل الظهور والانتشار للإسلام.

وثانيهما: سماحة الإسلام.. وبساطته.. ومنطقه العقلانى.. والقوة الذاتية التى امتلكها وتميز بها هذا الدين عن غيره من الديانات.

كما يشهد «سير. توماس أرنولد» ـ ومعه كوكبة العلماء الغربيين الذين استشهد بدراساتهم ـ على الحقيقة التى تمثل «مفارقة غريبة».. حقيقة انتشار النصرانية ـ التى هى ديانة السلام المتصوف، والصوفية المسالمة ـ بالسيف والعنف والقهر والإكراه .. بينما تم انتشار الإسلام ـ الذى هو دين ودولة.. وعقيدة وشريعة ـ بالسماحة، والدعوة التى تتوجه إلى العقول، وتجتذب القلوب.

يشهد العلامة «أرنولد» على هذه الحقائق الموضوعية والتاريخية.. وما لنا فى هذا المقام، إلا تقديم نصوصه الموثقة، التى نقدمها للقارئ الغربى ـ الظالم للإسلام.. أو الجاهل بحقيقته ـ ليراجع موقفه من الإسلام. كما نقدمها للقارئ المسلم، ليزداد يقينه بعظمة الإسلام.. وسمو سماحته.. وليزداد عزمه على الدفاع عن الإسلام فى مواجهة الحملة البربرية الظالمة لهذا الدين.

ونحن نقدم هذه الشهادة ـ شهادة «سير. توماس أرنولد» تحت هذه العناوين:

١ ـ حالة النصرانية إبان ظهور الإسلام.

٢ ـ العوامل الذاتية لتفوق الإسلام.. وسرعة انتشاره.

٣ ـ سماحة الإسلام..

٤ ـ نشر المسيحية بالعنف.

* * *

يشهد على ذلك كله العلامة «سير. توماس أرنولد».. فيقول:

- ١ -

حالة النصرانية إبان ظهور الإسلام

[لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له فى العالم . .
وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون
انخداعًا عظيمًا . .]

جورج سيل Sale. G [١٦٩٧ - ١٧٣٦ م]

مترجم القرآن الكريم إلى الإنجليزية .

• العوامل التى ساعدت على نشر الإسلام

إن حالات المجتمع المسيحى نفسه قد جعلت الجهود التى تنطوى على الغيرة والحماسة الدينية فى اكتساب مسلمين جدد أشد أثرًا وأعظم قيمة .

ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية فى مقدمة هذه الحالات جميعًا . وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية فى الشئون الزمنية ، نشأ استبداد فى الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاكم الذى حرّم كل مناقشة فى شئون الأخلاق والدين . والشىء الوحيد الذى أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التى أقامت حربًا عوانًا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما فى المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة . **وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعى المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة . ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا فى عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية ، وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض . ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة ، كالانبثاق المزدوج لروح القدس ، وأخرى تافهة - كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير فى**

القربان المقدس - تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التى تقوم على الوحدانية . . وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم، وأخبار عن الطريقة التى أجرى بها الأتراك أرزاقا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام.

وبينما كانت «أدرنة» لا تزال العاصمة التركية [أى قبل سنة ١٤٥٣م] كان البلاط قد اكتظ بالذين أسلموا، ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك. **وكثيراً ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيراً.**

وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحى من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان.

وفى الكنيسة الإغريقية أصبح الدين الإسلامى الملجأ الطبيعى لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط . .»[٣].

* * *

• فساد رجال الدين المسيحى كان من أسباب اعتناق الإسلام:

وفى عهد صلاح الدين الأيوبى فى مصر [٥٦٤ - ٥٨٩هـ - ١١٦٩ - ١١٩٣م] تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، فى ظل ذلك الحاكم الذى عرف بالتسامح الدينى، فقد خففت الضرائب التى كانت فرضت عليهم، وزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتّاب وصيارفة.

وفى عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية[٤] **بينهم، فبيعت مناصب القسيسين، الذين اتصفوا**

بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة فى احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيًا وخلقيًا إهمالاً تامًا **وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال**. . كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع والسبعين من بطارقة اليعاقبة فى سنة ١٢١٦م، كان لا بد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتعادية المتناحرة، التى لجت فى إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات، فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التى تنطوى على العناد وإثارة الشقاق. وفى أكثر من مناسبة حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة، ورفض ما عرضت عليه من رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الآلاف، بل عشرة الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمى. بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التى اعتاد أن يؤديها البطريق الذى يفوز حديثًا بالانتخاب، لو أنهم طرحوا منازعاتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق. ولكن هذه الجهود لم تحقق أى غرض من الأغراض. . وخلا فى الوقت نفسه كثير من الأسقفيات، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا فى تلك الفترة.

ومما يدل على **أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعًا إلى الاضطهاد**، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصيلة، وهو أنه فى الوقت الذى شغر فيه كرسى البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة فى إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم، بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التى حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا فى محاكمهم الخاصة، على حين **أعفى الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة. . .**».

* * *

«إن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة ـ كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى

الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين[٦] طائفة منفصلة، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتًا طويلاً، ودفعوا ثمنا غاليا فى هذا السبيل، قد اجتمعت فى **عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية**. ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم من حولهم، **إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة**، ورسالة نبيه محمد، بل إننا نجد فى داخل الكنيسة القبطية نفسها فى عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقد كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أى نظام كنسى مستقل، يجد طريقه لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة الذين دخلوا فى الإسلام.

إن نظرية الحياة المسيحية التى وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه فى التقشف فى أكبر صورة، قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية.. **ولكثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبى [محمد] يعتبرونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامى من أية طائفة أخرى**.

والظاهر أن الأمية كانت متفشية فى السواد الأعظم من رجال الدين المسيحى، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة، وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب. وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هناك عدد قليل جدًا يستطيع أن يدرك شيئًا منها. كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية، **وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر**[٨].

***

«إن اليعاقبة، الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسى التابعين للبلاط ـ [البيزنطى] ـ الذين ألقوا فى قلوبهم بذور السخط والحنق اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم. **كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم. وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لينجوا من أيدى**

مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٩]. ولقد قيل إن «جستنيان» [٤٨٣ ـ ٥٦٥م] أمر بقتل مائتى ألف من القبط فى مدينة الإسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إلى الصحراء..

وقد جلب الفتح الإسلامى إلى هؤلاء القبط.. حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. ويظهر أن حالة القبط فى الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعًا ما، وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم فى الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الإسكندرية، حاضرة مصر وقتئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة»[١٠].

***

«ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين **أن حالة الكنيسة الشرقية التى تدهورت فى ذلك الوقت ـ من الناحية الخلقية والروحية ـ لا بد وأن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوًّا روحيًّا أسلم وأصح فى ذلك الدين الإسلامى الذى جاءهم وهو فى أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفا.**

وعلى سبيل المثال، يتساءل «ملمان ـ Dean Milman»: «ماذا كانت حال العالم المسيحى فى الأقاليم التى تعرضت لأولى غزوات الإسلام؟ **كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضًا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهامًا وأكثرها غموضًا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة فى العقيدة الدينية.** والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس[١١] واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضًا، وقد استحكمت بينهم العداوة التى لا تفتر ولا تنقطع، ولا نكون مبالغين فى الحكم على مساوئ الجدل الدينى إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم فى إسار الكفار ـ [يقصد المسلمين] ـ إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك فى سبيل الدفاع عن المسيحية التى تربط بينهم.

فكم من أناس لا بد أن يكون هذا الجدل قد زعزع أسس عقيدتهم! . وكم كان غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم فى ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التى لا تنتهى عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، فى تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية، مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته.

وشبيه بهذا ما يراه «كيتانى ـ Caetani» [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبى بلاد العرب.

أضف إلى هذا قول «تايلور ـ Canon Taylor» [١٧٥٣ ـ ١٨٢٤م][١٢]: «إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر [هذا الدين الجديد] بهذه السرعة فى إفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت فى إفريقيا والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة، ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة فى السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل فى حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد

كان ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة، وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بيّن أصول الدين التى تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بيّن أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم، وفعل الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الدينى والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المنازعين فى الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التى تقوم عليها الطبيعة البشرية».

«أضف إلى ذلك، أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه **رد فعل ضد النظام الكنسى البيزنطى، الذى كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية فى الأعالى، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوى الأعظم فحسب بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك..**».

«أضف إلى ذلك أيضًا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية فى كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان، كما كان كذلك للتماثل الذى تم تدريجيًا فى الأخلاق والعادات، والذى أدى **فى خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجًا قويًا فى الحياة القومية التى كان يحياها العنصر العربى الحاكم** ـ كان لهذا كله من غير شك صدى فى الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التى دخلت فى حماية العرب الفاتحين. **ومن المحتمل جدًا أن تكون الحركة الفكرية التى أثرت فى العقيدة الإسلامية تأثيرًا بالغًا، ابتداء من القرن الثانى حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت فى المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح فى ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية...**»[١٣].

***

«لقد اتسعت الكنيسة المسيحية ـ [فى شمال إفريقيا] ـ قبل الإسلام.. ومع ذلك فلقد تلقت من اضطهاد الوندال[١٤] ضربة لم تفق منها قط. فقد ظل الوندال الآريون، قرابة قرن من الزمان، يضطهدون الأرثوذكس اضطهادا عنيفا لا هوادة فيه، فشردوا

أساقفتهم، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية، وقسوا فى تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا فى ديانة من فتحوا بلادهم. . »[١٥].

«ولكننا لم نسمع ـ [فى ظل الإسلام] ـ عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أى اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحى. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها «فرديناند ـ Ferdinand» [١٤٥٢ ـ ١٥١٧م] و«إيزابلا ـ Isabella» [١٤٥١ ـ ١٥٠٤م] دين الإسلام من إسپانيا، أو التى جعل بها «لويس الرابع عشر ـ Louis KIV» [١٦٣٨ ـ ١٧١٥م] المذهب الپروتستانتى مذهبًا يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا، أو بتلك السهولة التى ظل بها اليهود مبعدين من انجلترا مده خمسين وثلاثمائة سنة.

لقد كانت الكنائس الشرقية فى آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًّا عن سائر العالم المسيحى الذى لم يوجد فى جميع أنحائه أحد يقف فى جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا **فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم.**

إنه يجب ألا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة، بل على العكس، كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها إلى المناصب التى يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى فى الدولة. فملأوا مناصب الوزراء والكتّاب فى دواوين الحكومة، وحددوا قيمة الضرائب التى تُجْبَى على الأرض التى تُعطى على سبيل الالتزام[١٦]، وجمعوا ثروة ضخمة فى بعض الحالات. ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، **ونعم القبط فى عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة.**

صحيح أن بعض الخلفاء قد قام بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة، فأصدر المنصور [١٣٦ ـ ١٥٨هـ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م]، والمتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م]، والمقتدر [٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م]، والآمر [٤٩٤ ـ ٥٢٤هـ ١١٠١ ـ ١١٣٠م] ـ وهو أحد الخلفاء الفاطميين فى مصر ـ مراسيم بهذا الصدد، وصدرت مثل هذه المراسيم فى عهد سلاطين المماليك فى القرن الرابع عشر الميلادى،

ولكن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التى تنطوى على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائمًا. والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف الذى يسلكه الموظفون المسيحيون، أو إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التى ظهر بها الحكم الإسلامى، ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال فى أسرع وقت.. إن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثرًا الشعور دينى بحث.. بقدر ما كانت أثرًا للظروف السياسية التى سادت هذا العصر.. ويمكن أن نرجع كثيرا من اضطهادات المسيحيين فى البلاد الإسلامية إما إلى الشك فى ولائهم، الذى كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم فى شئونهم، أو إلى الشعور السيئ الذى أثاره المسلك القائم على الخيانة والقسوة، الذى ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين، على أن التعصب الدينى مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات، كما حدث فى عهد الخليفة المتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م] الذى اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف.. ومما هو جديد بالذكر أن مؤرخى الكنيسة النسطورية ـ التى لم يكن بد من أن تقاسى الكثير من هذا الاضطهاد ـ يعدونه أمرًا حديث العهد، انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته[١٧].

ولكن مثل هذا التعسف كان منافيًا لروح الإسلام السمحة.. وللتعاليم التى أثرت عن النبى.. ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها فى بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية فى خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم، فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعورًا قويًا من الاستياء. وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية فى سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشىء كثير من الغلظة والقحة، وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور [١٣٦ ـ ١٥٨هـ ـ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م]، والمهدى [١٥٨ ـ ١٦٩هـ ـ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م]، والمأمون [١٩٨ ـ ٢١٨هـ ـ ٨١٣ ـ ٨٣٣م]، والمتوكل [٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ ـ ٨٤٧ ـ ٨٦١م]، والمقتدر [٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ ـ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م]، وإلى كثير من خلفائهم. كما تعرضوا أيضًا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونًا للدولة

العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموى الذى أقصى عن الحكم. وفى عصر متأخر أتُّهم المسيحيون فى زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالاً ينطوى على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودًا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد دينى.

يقول السمعانى[18] [٥٠٦ ـ ٥٦٢هـ ١١١٣ ـ ١١٦٧م] ـ جـ ١ القسم الأول ص ٩٨، ١٠٦ ـ حين يتحدث عن الأسباب التى أدت إلى اضطهاد المسيحيين فى ظل الحكم الإسلامى:

«كثيرًا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم، وتصريحات رجال الدين وكبراء قادتهم، وسلطة أقطابهم العاتية، عاصفة من الاضطهاد، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتّاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم».

وفى خلال الحروب الصليبية، طالما وقع مسيحيو الشرق فى تهمة العمل على ممالأة الغزوات التى قام بها إخوانهم فى الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب.

وفى تركيا الحديثة، نجد حركة استقلال اليونان، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية فى أوروبا المسيحية ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة، أشق مما كان يمكن أن يكون لو أنهم لم يتهموا بالخيانة، ونفورهم من حاكمهم المسلم.

وقد أوضح «جوبينو ـ De Gobineau» [١٨١٦ ـ ١٨٨٢م][19] فكرته أيضاحًا قويًا جدًا فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام، حين قال:

«إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية التى طالما تحدثت وعملت باسمها **فإننا لا نجد دينًا أكثر تسامحًا، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعدًا عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام**. هذا التكوين الآلى قوى إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التى كان كيان الدولة الواقع فى خطر يحمل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة، **فقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية**.. ولا يجوز أن نقف عند ألوان القسوة والعنف اللذين ارتكبا فى أية مناسبة.. والتى إذا نظرنا إليها عن قرب لن نتردد فى معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضة، أو راجعة إلى الأهواء البشرية، أو إلى المزاج

المسيطر على الحاكم أو فى الشعوب . إن الفعل الدينى لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هى حجة ولكنه فى الواقع لا يدخل فى نطاقها» .

ولقد عرض «مارى بن سليمان»[٢٠] تعليلا لحالات الارتداد عن النصرانية إلى الإسلام ـ حول نهاية القرن العاشر ـ بقوله : **«وأسلم خلق كثير ، وكان أصل ذلك تجوّز الناس فى أديانهم ، وقبح سيرة الكهنة فى المذابح والبيع وبيوت المقدس»** «ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا فى المدن الكبيرة ، حيث تحول بعضها إلى مساجد ، وهو تصرف كان من العسير أن يُعترض عليه نظرًا لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص فى المجتمع المسيحى»[٢١] .

* * *

- ٢ -

العوامل الذاتية لتفوق الإسلام.. وسرعة انتشاره

«لقد باشر محمد سلطة زمنية كالتى كان يمكن أن يباشرها أى زعيم مستقل، مع فارق واحد هو أن الرباط الدينى بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام، ولو من الوجهة النظرية على الأقل، كما سن دائمًا، نظامًا سياسيا بقدر ما هو نظام دينى.

كانت رغبة محمد ترمى إلى تأسيس دين جديد. وقد نجح فى هذا السبيل، ولكنه فى الوقت نفسه أقام نظامًا سياسيًا له صفة جديدة متميزة تميزًا تامًا.

وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية فى ظل الأخوة الإسلامية فى المجتمع العربى قد بدأ منذ حين فى إضعاف القوة الرابطة للفكرة القبلية القديمة، تلك الفكرة التى أقامت بناء المجتمع العربى على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله فى المجتمع الجديد هدمًا لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب فى الإسلام من العوامل القوية التى أدت إلى تفكيك النظام القبلى وتركه ضعيفًا أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كتلك الحياة التى صار إليها المسلمون.

إن دخول الإسلام فى المجتمع العربى لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لمثل الحياة التى كانت من قبل.

كذلك نجد أن أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير، سواء فى جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن «مونتسكيو» [١٦٨٩ - ١٧٥٥](٢٢) فى قوله: «إن المرء لأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأى

دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر؛ وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التى تسيطر دائمًا على تفكيره».

إن دين المسلم يتمثل دائمًا فى مخيلته، وفى الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين فى طريقة نسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين.

يتحدث سعيد بن الحسن - أحد يهود الإسكندرية، الذى اعتقد الإسلام فى سنة ١٢٣٨م - عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملاً حاسمًا فى تحوله إلى الإسلام. فى خلال مرض شديد قد انتابه، رأى فى المنام أن صوتًا يأمره بأن يجهر بالإسلام: «وعندما دخلت المسجد - [ويستمر حديثه إلى أن يقول] -: «ورأيت المسلمين يقفون صفوفًا كأنهم الملائكة، سمعت هاتفًا يقول: هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم) بقدومها. ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى علىّ شعور عميق من الرهبة.. ولما ختم خطبته بالكلمات: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون. ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعنى إلى النهوض؛ لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة، الذين يتجلى الله القدير فى سجداتهم، ثم سمعت هاتفًا يهتف بى: إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بنى إسرائيل فى كل العصور، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة فى كل وقت من أوقات الصلاة. وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلمًا».

أما «رينان - إرنست» [١٨٢٣ - ١٨٩٢م][٢٣] فإنه يقول: «ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزنى عاطفة حادة، وبعبارة أخرى: دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلمًا».

ومن كلمات أسقف مسيحى مشهور: «ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أُخذ بمظهر دينهم هذا. وحيثما يمكن أن توجد، فى الطريق العامة، أو فى محطة السكة الحديدية، أو فى الحقل، فإن من أكثر الأشياء شيوعًا أن ترى الرجل منهم، يترك فى اللحظة التى يقوم فيها بأداء أعماله أيّا كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور، وفى سكينة وتواضع، لكى يؤدى صلواته فى أوقاتها المحددة، وأكثر من ذلك، أنه ما من فرد رأى يومًا ساحة الجامع الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وهى غاصة

بما قد يربو على ١٥,٠٠٠ مصلٍّ، وكلهم جميعًا منهمكون فى صلاتهم، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع فى كل إشارة يبدونها، إلا تأثر تأثرًا عميقًا بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التى ينضوى مثل هذا النظام تحت لوائها، على حين نجد النظام الدقيق الذى يتجلى فى دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعى فى وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح، أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها، أو عندما يرخى الليل سدوله كذلك، مفعمًا بتلك الرسالة ذاتها.

ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام دينى يجذب الناس عن طريق مراودتهم فى ملذاتهم الشخصية، وكما قال «كارليل» [١٧٩٠ ـ ١٨٤٣م][٢٤]: «إن دين محمد ليس بالدين السهل، فإنه بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة، وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح فى أن يكون دينًا سهلاً..»[٢٥].

***

«.. ويرجع انتشار الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية، على أن هناك عاملاً من أقوى العوامل الفعّالة التى أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هى الأعمال المطردة التى قام بها دعاة من المسلمين وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدى الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة.

لقد حمل الإسلام، منذ البداية، طابع الدين الذى يقوم على الدعوة، ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه، وحثهم على الدخول فى زمرة المؤمنين.. وكما كانت الحال فى مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم.

ولم يكن نشر الإسلام من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قامت النساء المسلمات أيضا بنصيبهن فى هذه المهمة الدينية.. وقد أنشأ دعاة السنوسية[٢٦] الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو[٢٧]، شمال بحيرة تشاد، مدارس للبنات، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهم من البربر)، فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام..

إنه يجب لأ لا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية فى قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى فى مآثر المحارب المسلم ـ ذلك البطل الأسطورى الذى حمل السيف فى إحدى يديه، وحمل القرآن فى اليد الأخرى ـ وإنما نلتمسها فى تلك الأعمال الوديعة الهادئة التى قام بها الدعاة وأصحاب المهن الذين حملوا عقيدتهم فى كل صقع من الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية فى نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرًا مستحيلاً، يتنافى مع الأساليب السياسية. **فقد جاء القرآن مشددًا فى الحض على هذه الطرق السلمية، فى غير آية منه**، مثال ذلك:

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

﴿إِلاَّ بَلاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ [الجن: ٢٣].

﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٨٢].

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية، وإنما وردت أيضًا بكثرة فى الآيات المدنية، كقوله ـ تعالى ـ:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩].

﴿وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣].

***

وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة فى نشر الدعوة.. فلنسرد الآن بعض العوامل التى ساعدت على نجاحهم: فى مقدمة هذه الأسباب: **بساطة العقيدة الإسلامية، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وكل ما يطلب من الذى يدخل فى الإسلام، قبول هاتين الشهادتين.. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة.. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أى فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية.**

ولا يستطيع أى فرد أن يوضح الطابع العقلى للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة فى نشر الدعوة، توضيحًا يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفيسور «مونتيه» [١٨٥٦ـ١٩٢٧م][٢٨] فى العبارات التالية:

«**الإسلام فى جوهره دين عقلى، بأوسع معانى هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلى Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام تمام الانطباق**. والحق أن محمدًا، الذى كان متحمسًا لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان، ونار الاقتناع تلك الصفة القيمة التى بثها كثير جدًّا من أتباعه ـ قد عرض

حركته الإصلاحية على أنها وحى وإلهام: على أن هذا النوع من الوحى ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلامات التى تدل على **أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل**. وتتلخص العقيدة الإسلامية، من وجهة نظر المؤمنين، فى الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد فى الله وفى الحياة الآخرة. وهذان المبدآن هما أقل ما ينبغى للاعتقاد الدينى، وهما أمران يستقران فى نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، وتلخصان كل تعاليم العقيدة التى جاء بها القرآن. **وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهى على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعّالة فى الدين وفى نشاط الدعوة إلى الإسلام.. لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التى بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القران دائمًا بمبدأ الوحدانية، فى عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد فى غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسى، والبساطة الجوهرية فى الصورة التى يصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التى تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هى تبعًا لذلك فى متناول إدراك الشخص العادى، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس..».**

***

«وقد أكد «مراتشى - Marracci» [١٦١٢ - ١٧٠٠م][٢٩] هذا القول، فى القرن السابع عشر، بقوله: «لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التى فاقت طاقة الذكاء البشرى، أو التى هى، على الأقل، من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة - [العقيدة المسيحية] - وبين عقيدة القرآن، لا نصرف عن الأولى فى الحال، وأسرع إلى الثانية فى ترحيب وقبول..».

«وإذا قبل الذى يدخل فى الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلّمها، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس:

(١) النطق بالشهادتين.

(٢) وإقام الصلوات الخمس فى أوقاتها.

(٣) وإيتاء الزكاة.

(٤) وصوم رمضان.

(٥) والحج إلى مكة.

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الفرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية ظلت من جملة تعاليم النبى التى تدعو إلى الوحدانية، ولكن ينبغى ألا يعزب عن الأذهان، **أن الحج قد اقترن بإبراهيم، فهو إعادة دين إبراهيم. ولكن، فوق ذلك كله - وهنا تكون أهميته العليا فى تاريخ نشر الدعوة فى الإسلام - ينظم الحج اجتماع المؤمنين فى كل سنة، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم، للصلاة فى ذلك المكان المقدس، الذى يولون وجوههم شطره فى كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة فى أوطانهم النائية**. ولم تستطع أية محاولة يقوم بها عباقرة أى دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع فى عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وأخوتهم التى ارتبطت بروابط الدين، وفى ذلك المكان، حيث نجد عملاً ساميًا من أعمال العبادة المشتركة، نرى زنجى ساحل أفريقيا الغربى يلتقى بالصينى من أقصى الشرق، ويتعرف التركى الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفى هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين فى كافة أنحاء العالم الإسلامى، فى عطف وحنين، إلى إخوانهم الأسعد حظًا منهم، الذين تجمعوا فى المدينة المقدسة، فيحتفلون فى أوطانهم بعيد الأضحى - العيد الكبير. وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت فى نظر كثير من المسلمين التجربة التى حثتهم على الجهاد فى سبيل الله. ولقد قامت طبقة الحاجى - الحجاج - بنصيب فعّال فى أعمال نشر الدعوة الإسلامية.

وإلى جانب نظام الحج، نجد إيتاء الزكاة فرضًا آخر يذكّر المسلم دائمًا بقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] - وهى نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش فى المجتمع الإسلامى، وقلما تعجز عن أن تتجلى فى

أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد . . ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه، فإنه يُقبل فى زمرة المؤمنين، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين».

«لقد روعى فى تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار، وكان مبشروها، فى أغلب الأحيان، قساوسة ورهبانًا، يعينون لهذا الغرض بانتظام.

أما فى الإسلام، فإن عدم وجود أى لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أيّا كانت، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى فى صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التى تظهر فى تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية فليس هناك جمعيات للدعوة، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض، كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود فى هذه السبيل . . إن عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت، أو أية نظرية ترى فصل المعلم الدينى عن عامة المؤمنين، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية، والتصريح بها كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسى فى النظامين، يظل قائمًا فى كل مكان، فى وضوح وجلاء . . ».

***

«ولم يكن النشاط الروحى للإسلام، كما زعم عدد كبير جدًا من الناس، متمشيًا مع سلطانه السياسى. بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادى، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التى تعد أصدق البواعث التى تحفز على القيام بأعمال الدعوة»[٣٠].

***

- ٣ -

سماحة الإسلام

«يقـول «كـايتـانى» [١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م] : **«لم يضطهـد العـرب أحـدًا فى السنوات الأولى من أجل الدين، كـمـا أنهم لم يعـملوا على ضـم أحد إلى دينهم، ومن ثـم تمتع المسيحيون الساميون، فى ظل الإسلام، بعد الفتوحات الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة. .»**.

«وما أثر عن عمر بن الخطاب [٤٠ق هـ ـ ٢٣هـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤م] من أنه أمر أن يُعطى قوم مجذومون من النصارى من الصدقات، وأن يجرى عليهم القوت ـ [البلاذرى ص ١٢٩] ـ وهو لا ينسى الذميين حتى فى أخرى وصاياه، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغى القيام به فى هذا المنصب السامى، فقال: «أوصيه بذمة الله وذمة رسوله، أن يوفى لهم بعهدهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم».

«وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا فى عهد الفتوح الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم».

«وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثانى ـ ابن عبد العزيز ـ [٩٩ ـ ١٠١هـ ٧١٧ ـ ٧٢٠م] بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق».

***

«ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح».

يقول «لايارد ـ Layard» : إنه صادف مخيمًا من العرب المسيحيين فى مدينة الكرك،

شرقى البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء فى الزى أو العادات».

«**ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشىء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلاً من الجزية الصدقات الشرعية، وهى الزكاة التى كانت تفرض سنويًا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية**. . وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادى للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية الحكومة العربية، حول نهاية القرن الأول، إلى أن تشدد على المسلمين الجدد فى أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم فى زمرة المؤمنين».

«**ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة - [الجزية] - على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة فى الجيش، فى مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين. . ومن الواضح أن أى جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت فى خدمة الجيش الإسلامى، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهى قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم فى مغازيهم، على شريطة ألا تُؤخذ بالجزية، وأن تُعطى نصيبها من الغنائم.**

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس فى سنة ٢٢هـ أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التى تقيم على حدود هذه البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية، فى حالة المسيحيين الذين عملوا فى الجيش أو الأسطول فى ظل الحكم التركى. مثال ذلك ما عومل به أهل «ميغاريا - Migaris» وهم جماعة من مسيحيى ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على

شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال «Geranes» Cithaeron التى كانت تؤدى إلى خليج كورنثه. وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركى، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج، ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب. وكذلك لم يدفع أهالى «Hydre» المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا فى مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشد رجال الأسطول التركى كان ينفق عليهم من بيت المال فى تلك الناحية. وقد أعفى أيضًا من الضريبة أهالى رومانيا الجنوبية، الذين يطلق عليهم Awmaloli وكانوا يؤلفون عنصرًا مهمًّا من عناصر القوة فى الجيش التركى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم «المرديون ـ Mirdites» وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالى اسكدار Scatari، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة فى زمن الحرب. وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرءوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التى أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا فى حراسة مستودعات البارود فى تلك المدينة، نظرًا إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفى الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام، وفرضت عليهم الجزية فى نظير ذلك، كما فرضت على المسيحيين».

***

«إن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق.. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى.

وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامى قد تلونت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية، **ظل الكفار، على وجه الإجمال، ينعمون فى ظل الحكم الإسلامى بدرجات من التسامح لم نكن نجد لها مثيلاً فى أوروبا حتى عصور حديثة جدًّا. وإن التحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقًا لتعاليم القرآن:** ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠] ـ وإن مجرد وجود كثير

جداً من الفرق والجماعات المسيحية فى الأقطار التى ظلت قروناً فى ظل الحكم الإسلامى، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذى نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على أن الاضطهادات التى كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة من مبدأ مقرر من التعصب. . . ».

« . . ولما هرب موسى بن ميمون [٥٢٩ ـ ٦٠١هـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٤م] ـ الذى كان قد تظاهر بالدخول فى الإسلام فى عهد الموحدين، الذين كان حكمهم ينطوى على التعصب الدينى ـ إلى مصر، وأعلن هناك أمام الملأ أنه يهودى، اتهمه أحد فقهاء المسلمين من إسبانيا بالارتداد عن الإسلام، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجرم. ولكن القاضى الفاضل، عبد الرحيم بن على [٥٢٩ ـ ٥٩٦هـ ـ ١١٣٥ ـ ١٢٠٠م] ـ وهو من أشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم [٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م] ـ ألغى هذا الحكم، وأعلن بصفة جازمة، أن رجلاً قد أرغم على الدخول فى الإسلام، لا يصح شرعاً أن يُعد مسلماً.

وبهذه الروح نفسها، نجد «غازان» [٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ ١٢٩٥ ـ ١٣٠٤م][31] عندما اكتشف أن عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا فى الإسلام فى مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظاهراً ونفاقاً، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين فى العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين، ويتبعون ديانتهم القديمة.

ويقص لنا «افرنيير ـ Tavernier»[32] [١٦٠٥ ـ ١٦٨٩م] قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهاداً شديداً إلى حد أنه جعلهم يتحولون إلى الإسلام بالقوة والخديعة كلتيهما، ولكن الملك (الشاه عباس الثانى) [١٦٤٢ ـ ١٧٦٧م] أدرك أن القوة والرهبة وحدهما قد أرغمتاهم على هذا التحول، فأذن لهم أن يستردوا ديانتهم، وأن يعيشوا فى هدوء وأمان».

« . . حتى الحاكم المجنون ـ [الحاكم بأمر الله [٣٨٦ ـ ٤١١هـ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠م] ـ الذى حملت اضطهاداته كثيراً من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام ـ قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم، وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة.

لقد كان من السهل على أى حاكم من حكام الإسلام الأقوياء، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الإسپان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبًا. . وكان من الممكن تمامًا أن ينفذ سليم الأول [٨٧٥ ـ ٩٢٦هـ ١٤٨٠ ـ ١٥٢٠م] ـ فى سنة ١٥١٤م ـ أو إبراهيم [١٠٤٩ ـ ١٠٥٨ هـ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م] ـ فى سنة ١٦٤٦م ـ تلك الفكرة البربرية التى تصورها للقضاء على رعاياه المسيحيين ـ ولكن طبقة المفتى، الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذى ينطوى على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامى.

إن المبدأ الذى وجد قبولاً عظيمًا فى ألمانيا فى القرن السابع عشر ـ وهو أن لكل منطقة دينها الخاص ـ لم يقبله قط أى عاهل مسلم. .».

* * *

«وقد استطاع «ميخائيل الأكبر ـ Michael the Eldern» بطريق أنطاكية اليعقوبى، أن يحبذ فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ما قرره إخوانه فى الدين، وأن يرى إصبع الله فى الفتوح العربية. حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون. وقد كتب يقول ـ بعد أن سرد اضطهادات «هرقل» [٦١٠ ـ ٦٤١م]:

«. . وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام، الذى تفرد بالقوة والجبروت، والذى يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع ـ لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفى الحق، أننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام» . .

«. . ونجد «ركلدوس دى مونت كروسيس ـ Ricoldus de Monte Crucis»ـ وهو مبشر دومينقانى، زار الشرق فى نهاية القرن الثالث عشر ـ ينطلق بالثناء على المسلمين، الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم، يقول:

«استولى علينا الدهش، كيف أن أعمالاً تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا فى ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية ـ [كذا؟!]. لهذا نستعيد الآن فى إيجاز أعمال العرب، تلك المتصفة بالكمال. . **من ذا الذى لا يعجب إذا تأمل جيداً أية عناية فائقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب، وأى إخلاص فى الصلاة، وأية رحمة بالفقير، وأى تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة، وأى وقار فى أخلاقهم، وفى معاملتهم للغرباء، وأية مودة تربط بين جنسهم؟»**.

* * *

«لقد كان الأخطل [١٩ ـ ٩٠هـ ٦٤٠ ـ ٧٠٨م] ـ وهو عربى نصرانى ـ شاعراً للبلاط الأموى . . . وكان القديس يوحنا الدمشقى [٥٥ ـ ١٢٢هـ ٦٧٥ ـ ٧٤٠م] مستشار الخليفة عبد الملك بن مروان [٦٥ ـ ٨٦هـ ـ ٦٨٥ ـ ٧٠٥م]. . وكان فى خدمة الخليفة المعتصم [٢١٨ ـ ٢٢٧هـ ـ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م] أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين، أحدهما يدعى «سلمويه». . وأخاه «إبراهيم». . وشغل الأول منصباً يشبه منصب الوزير فى العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد. . واختار عبد الملك بن مروان عالماً مسيحيّاً من مدينة الرها، يدعى «إثناس ـ Athansias» مؤدبا لأخيه عبد العزيز. . وفى نهاية القرن الثامن، نرى رجلا يدعى أبا نوح الأنبارى، كاتب أبى موسى بن مصعب، والى الموصل. . وفى عهد المعتضد [٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ ـ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م] كان عمر بن يوسف والى الأنبار مسيحيّا. . ولقد عهد الموفق ـ وكان صاحب السلطان المطلق على أخيه المعتمد [٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ ـ ٨٧٠ ـ ٩٢٠م] ـ بأمر تنظيم الجيش إلى مسيحى، يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد، نصرانيّا آخر كاتبًا له، وهو ملك بن الوليد. . وفى عصر متأخر، تولى ـ فى أيام المقتدر [٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ ـ ٩٠٨ ـ ٩٣٢م] ـ نصرانى آخر أمر ديوان الجيش. . وكان نصر بن هارون مسيحيّا، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهى [٣٣٧ ـ ٣٧١هـ ٩٤٩ ـ ٩٨٢م].

وكان البطريق النسطورى «طيماوس ـ Timotheus» يعقد المناظرات فى المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادى [١٤٤ ـ ١٧٠هـ ـ ٧٦١ ـ ٧٨٦م] وهارون الرشيد [١٤٩ ـ ١٩٣هـ ـ ٧٦٦ ـ ٨٠٩م] . . ولما قدم شخص يدعى «يزدانبخت»، زعيم المانوية[٣٣]، فى زيارة لبغداد، وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين، وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة ـ [المأمون [١٧٠ ـ ٢١٨هـ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م] ـ أن يقنعه باعتناق الإسلام، ولكن «يزدانبخت» أبى ذلك، وقال: نصيحتك، يا أمير المؤمنين، مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم». فلم يبد الخليفة شيئًا من الاستياء لإخفاق محاولته، ووكل به من حفظه خوفًا عليه من تعصب الغوغاء» ـ [الفهرست. جـ١ ص ٣٣٨].

* * *

« . . وأما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين العرب، فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التى كانت تقيم فى بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شىء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامى الذى كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه «الاندماج السلمى» الذى تم بطريقة لم يحسها أحد منهم، ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم فى الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين».

« . . وإن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية فى أفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أى زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه . . . »[٣٤].

* * *

- ٤ -

نشر المسيحية بالعنف

«• لقد فرض «شارلمان» [٧٤٢ ـ ٨١٤م][٣٥] التعميدات المسيحية على السكسونيين الوثنيين بحد السيف.

• وفى الدانمرك، أستأصل الملك «كنوت ـ Cnat» [٩٩٥ ـ ١٠٣٥م] الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب.

• و«جماعة إخوان السيف ـ Bretheren of the Sword» وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار فى تنصير البروسيين الوثنيين.

• ولقد فرض فرسان Ordo Fratrum Miliae christ المسيحية على شعب ليفونيا فرضًا.

• وفى سنة ١٦٩٩م وجه «فالنتين ـ Valentyn» إلى «رجوات ـ Rajas» جزيرة «أمبوينا ـ Amboyna» مرسومًا يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم إذا ما طاف بهم راعى الكنيسة.. وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجبارى محل الدعوة الهادئة إلى «كلمة الله».

• وفى «ڤيكن ـ Viken» (القسم الجنوبى من النرويج) كان الملك «أولاف ترايجفيسون ـ Olaf Trygevesson» [٩٦٣ ـ ١٠٠٠م] يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول فى المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين فى «ڤيكن» بأسرها.

• ووصية القديس لويس [١٢١٤ ـ ١٢٧٠م] تقول: «عندما يسمع الرجل العامى أن الشريعة المسيحية قد أسيء إلى سمعتها، فإنه ينبغى ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه، الذى يجب عليه أن يطعن به الكافر فى أحشائه طعنة نجلاء».

• ولقد ظل الإسلام قائما بين «الباشغردية» من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠م، حين أرغم الملك «شارل روبرت» جميع رعاياه، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتنقوا الدين المسيحى أو يغادروا البلاد.

• وفى سنة ١٧٠٣م جمع «دانيال بيتروڤتش ـ D. Petrovich»، الأسقف الحاكم فى ذلك الحين، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر فى القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا فى المسيحية من مسلمى الجبل الأسود قتلوا فى ليلة عيد الميلاد، فى ثبات ورباطة جأش.

• وفى روسيا ـ سنة ٩٨٨م ـ جهر «فلاديمير ـ Vladimir» ـ ملك روسيا فى ذلك الحين ـ بالمسيحية، وفى اليوم التالى لتعميده، أصدر مرسوما يقضى بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيدًا، أغنياء وفقراء، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية، وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس.. ولم يفتح الباب أمام التدين بالإسلام - فى روسيا ـ إلا بعد أن صدر مرسوم سنة ١٩٠٥م الذى ينص على التسامح الدينى.. أما قبل ذلك التاريخ، فلقد حاولت الحكومة الروسية فرض المسيحية على رعايا المسلمين فى أوروبا ـ بما فى ذلك التتار ـ وكان القانون الجنائى الروسى يتضمن دائمًا عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى سنين وعشر.

ولقد دونت الأخبار كثيرًا عن دخول الناس فى الإسلام أفواجا، بعد صدور مرسوم الحرية الدينية سنة ١٩٠٥م.. ولقد كان أكبر الفضل فى ذلك النجاح للدعوة الإسلامية راجعًا إلى مستوى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى، الذى كان أكثر رقيًا، كما يرجع أيضًا إلى شعور التآخى الذى كان يشيع فى هذا المجتمع، والذى كان أكثر تماسكًا وقوة.. وكان هؤلاء الذين أسلموا يلقون فى قراهم عنتًا واضطهادًا بتسميتهم «الكلاب المختونين».

ولقد أخذ الخوف من رجال الكنيسة الأرثوذكسية كل مأخذ، حتى أقاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بين أهالى القوقاز والأبخازى Abkhazes A أملاً فى مناهضة النفوذ الإسلامى.

• وفى الحبشة، اتخذ الملك «سيف أرعد» [١٣٤٢ ـ ١٣٧٠م] ـ حاكم أمهرة ـ تدابير صارمة ضد المسلمين فى مملكته، تقضى بإعدام كل من أبى الدخول فى المسيحية أو نفيهم من البلاد. . وقد قيل إن الملك «بثيد ماريام» [١٤٦٨ ـ ١٤٧٨م] قضى الجزء الأكبر من حكمه فى محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته. . وقد كان على مسلمى «هدية» أن يدفعوا جزية أخرى للملك، وهى أن يعطوه فى كل سنة بنتًا ينصرها له، وجرت هذه العادة فى بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائمًا بها. . ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب، ولا يمسكوا السيف، ولا يركبوا خيولهم بالسروج، وإلا قتلهم وخرب مساجدهم. . ولقد كانوا مجبرين على تقديم الأموال إلى رسل الملك، ومعها البنت، يخرجونها على السرير، بعد تغسيلها وتكفينها بثوب والصلاة عليها، بحسبانها قد ماتت!

• وقبائل الجلا والسومال، أدخلوا كرهًا فى الديانة المسيحية. . أرغمهم ملك الحبشة على انتحال المسيحية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

• وفى سنة ١٨٧٨م ـ بعد حرب [١٨٧٥م] بين الحبشة ومصر ـ عقد الملك الحبشى «چون» مجمعًا يضم رجال الكنيسة الحبشية، ونادوا به حكمًا أعلى فى المسائل الدينية، فقرر وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة. وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم، ما عدا اليعاقبة، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقين فى الرأى مع كنيسة البلاد، وألزم المسلمون بالتسليم فى خلال ثلاث سنين، والوثنيون فى خلال خمس. وأذاع الملك مرسومًا بعد ذلك بأيام قليلة، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث التى مُنحها المسلمون كانت قليلة الأهمية، وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية، متى كانوا فى حاجة إليها، ودفع العشور للقساوسة الذين فى مقاطعاتهم الخاصة، بل إنه أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا فى خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلى عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجبارى عديم الأثر بطبيعة الحال، ففى الوقت الذى تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا فى الخفاء يؤكدون ولاءهم للإسلام.

وفى هذه الحملة أرغم الملك چون سنة ١٨٨٠م ما يقرب من خمسين ألفًا من المسلمين على التعميد. . كما أجبر عشرين ألفًا من أفراد إحدى القبائل الوثنية. . ونصف مليون من قبائل الجلا على اعتناق المسيحية. . »[٣٦].

الهوامش:

(١) نيكلسون . و ١٠ ـ [تراث الإسلام] ص ١٦٨ ـ ترجمة : جرجيس فتح الله ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م . ومقدمة الطبعة الثالثة لكتاب [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٥ ـ ١٧ ـ ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

(٢) نيكلسون ـ مقدمة كتاب [الدعوة إلى الإسلام] ـ ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٨٥ ، ١٨٧ .

(٤) نسبة إلى سيمون الساحر ، والمراد : محاولة الارتقاء عن طريق المال إلى الرتب الروحية والكهنوتية ، وبيع الأشياء الروحية بالأثمان الدنيوية .

(٥) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٢٨ ، ١٣٠ .

(٦) أو اليعاقبة : فرقة مسيحية ، تنسب إلى يعقوب ، وهى إحدى فرق ثلاث اختلفت حول طبيعة المسيح ـ اليعقوبية ، والملكانية ، والنساطرة ، واليعاقبة يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح ، أى أنه هو الله والإنسان اتحدا .

(٧) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

(٩) المجمع المسكونى الرابع ـ سنة ٤٥١م ـ وهو الذى أقر عقيدة الطبيعتين للمسيح ـ وهى العقيدة الكاثوليكية .

(١٠) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(١١) «أوطيخوس ـ Eutychés» [٣٨٨ ـ ٤٥٤م] راهب يونانى عاش فى القسطنطينية ، وقال بوحدة الطبيعة فى المسيح (مونوفيزية) فحرمه المجمع الخلقيدونى سنة ٤٥١م .

(١٢) چون تايلور [١٧٥٣ ـ ١٨٢٤م] فيلسوف سياسى أمريكى ، يعرف بـ«چون تايلور الكاروليني» ، له مؤلفات مهمة فى الحقوق الخاصة بالولايات .

(١٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩ ـ ٩٢ .

(١٤) قبيلة جرمانية قديمة، استوطنت ـ مع قبائل جرمانية أخرى ـ وادى أودر ابتداء من حوالى القرن الخامس قبل الميلاد.

(١٥) [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٤٥، ١٤٦.

(١٦) نظام فى استغلال الأرض الزراعية، تطرح فيه الدولة القرى والأرض فى المزاد على من يتقبل الالتزام بخراجها، فيدفع الملتزم ضمان هذا الأداء، ثم يقوم بالإشراف على زراعة الفلاحين ـ والأقنان ـ لها لقاء ما يتعيشون به، محصلاً الفوائض بين ما يدفعه للدولة وما يستغله من الأرض لنفسه.

(١٧) لقد شمل اضطهاد المتوكل كثيراً من المسلمين أيضًا، واضطهد المعتزلة والشيعة اضطهادًا فاق اضطهاده لغير المسلمين.

(١٨) أبو سعيد، عبد الكريم بن محمد التميمى، مؤرخ ورحالة، ومن حفّاظ الحديث. له آثار مهمة فى التاريخ والأنساب. وكتابه [تاريخ مرو] يزيد على عشرين جزءًا.

(١٩) جوبينو ـ جوزيف آرثر ـ كاتب وسياسى فرنسى، يعد كتابه عن [التفاوت بين الأجناس البشرية] أهم مؤلفاته.

(٢٠) مارى بن سليمان [منتصف القرن الثانى عشر الميلادى] مؤلف نسطورى جمع علوم النساطرة وتاريخهم فى كتابه [المجدل للاستبصار والجدل].

(٢١) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٣، ٩٤ ـ ٩٨، ٩٩، ١٢٨، ٤٦٢.

(٢٢) كاتب وفيلسوف فرنسى، يعد مؤلفه [روح القوانين] من معالم النهضة الأوروپية، بسط فيه الحديث عن أشكال الحكومات، والفصل بين السلطات، والديمقراطية النيابية.

(٢٣) مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسى. كتب عن نشأة المسيحية. وله كتاب: [ابن رشد والرشدية]. وهو من الذين نزعوا إلى تقسيم البشر تقسيمًا عنصريًا حسب السلالات.

(٢٤) مصلح ومفكر إنجليزى حر. له كتابه المشهور: [العظماء مائة أولهم محمد].

(٢٥) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٥٢، ٥٩، ٦١، ٤٥٩، ٤٦٠، ٥٥٨، ٥٥٩.

(٢٦) طريقة صوفية مجددة، تعد من حركات اليقظة الإسلامية الحديثة، تنسب إلى مؤسسها محمد بن على السنوسى الإدريسى [١٢٠١ ـ ١٢٧٥هـ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م].

(٢٧) من القبائل الأفريقية.

(٢٨) إدوارد مونتيه. مستشرق فرنسى، ترجم القرآن إلى الفرنسية. ومن مؤلفاته: [حاضر الإسلام ومستقبله].

(٢٩) الأب مراتشى . مستشرق إيطالى ، من رجال اللاهوت . نشر القرآن متنًا وترجمة : بالإيطالية . وله : [دراسة عن الإسلام] . كما أسهم فى ترجمة العهدين القديم والجديد .

(٣٠) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٢٧ ، ٢٨ ـ ٣٠ ، ٦٢ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ـ ٤٥٧ ، ٤٦٩ .

(٣١) هو غازى محمود ، أحد سلاطين المغول ، اعتنق الإسلام ، وجعله دين الدولة ، وشيد عددًا من المؤسسات فى تبريز .

(٣٢) تافرنييه ـ جان باتست . رحالة فرنسى ، قام بست رحلات فى آسيا ، ووصل إلى جاوه وجزر الهند الشرقية ، ومنحه الملك لويس الرابع عشر لقب «بارون» ومات فى رحلته السابعة إلى الشرق .

(٣٣) من فرق المذاهب الدينية الفارسية ، نسبة إلى «مانى» الذى ادعى النبوة سنة ٢٤٢م . وهى تتخذ إلهين أحدهما للخير والثانى للشر .

(٣٤) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ـ ٨٢ ، ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٥٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ .

(٣٥) إمبراطور الغرب وملك الفرنجة . تَوَّجَهُ بابا روما إمبراطورًا يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م .

(٣٦) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠ ـ ٣٢ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ـ ١٤٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤ ـ ٢٧٦ ، ٢٧٨ ـ ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ .



الموقف من الحضارات الأخرى

• ماهو موقف الإسلام من مبدأ صدام الحضارات؟؟.. ومن مبدأ الصراع بوجه عام؟؟

• وما هو تاريخ الاستعمار الغربى مع «نزعة» صدام الحضارات؟؟..

• وهل كان حديث «هنتنجتون» عن صدام الحضارات.. «تبشيراً» بهذا الصدام؟.. أم هو «كاشف» عن واقع الموقف الغربى فى «ممارسة» صدام الحضارات؟؟.. وما هو المخطط الذى أشار إليه فى إدارة هذا الصدام؟؟..

• وهل كتبَ الاستعمارُ الغربى على المسلمين صدام الحضارات ـ رغم رفضهم لهذا الصدام ـ؟ كما كُتب على المسلمين القتال ـ مع كُرهم لهذا القتال ـ؟!..

• إن الوعى بحقائق «الفكر» و«الواقع» فى هذه القضية المشتعلة نيرانها فى الحرب المعلنة ضد الإسلام.. وفى القواعد العسكرية الغربية الجاثمة على أرض الإسلام.. وفى الشركات المتعددة الجنسيات التى تنهب ثروات عالم الإسلام.. لبلورة موقف حضارى ونضالى إزاءها.. هو الهدف من وراء صدور هذا الكتاب.

• إنه كتيبة من كتائب الجهاد الفكرى، فى مواجهة هذه التحديات.

أسباب انتشار الإسلام
«شهادة غربية»

• «..لقد جلب الفتح الإسلامى إلى القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التى لم ينعموا بها من قبل ... ولم يكن دخولهم فى الإسلام على نطاق واسع راجعا إلى ضغط أو اضطهاد..»

• «ولقد كان انتشار الإسلام بين نصارى الشرق نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التى تحوّل إليها اللاهوت الكنسى.. فتزعزعت أصول العقيدة الدينية ذاتها... فلما أهلت أنباء الوحى الإسلامى، لم تعد تلك العقيدة - التى اختلطت بالغش والزيف - قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد.. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبىّ العرب..»

• «لقد جاء الإسلام ثورة على المجادلة الجوفاء فى العقيدة.. وبيّن أصول الدين، التى تقول بوحدانية الله وعظمته.. وأحلّ الشجاعة محل الرهبنة.. ومنح العبيد رجاءً.. والإنسانية إخاءً.. ووهب الناس إدراكا للحقائق الأساسية التى تقوم عليها الطبيعة البشرية..»

• «إن الإسلام فى جوهره دين عقلى.. وإننا لا نجد دينا أكثر تسامحا من الإسلام..»

• تلك سطور من الشهادة الغربية، التى تقدمها صفحات هذا الكتاب.

